قلبُ الفلسطيني رحمٌ عقيمٌ لا يُنجبُ إلا حُبًّا للقدس

وَأخذَتهُ مِني فِلَسطِين

رواية

سيدرا حسين بربر

منشورات فريق أثر الثقافي

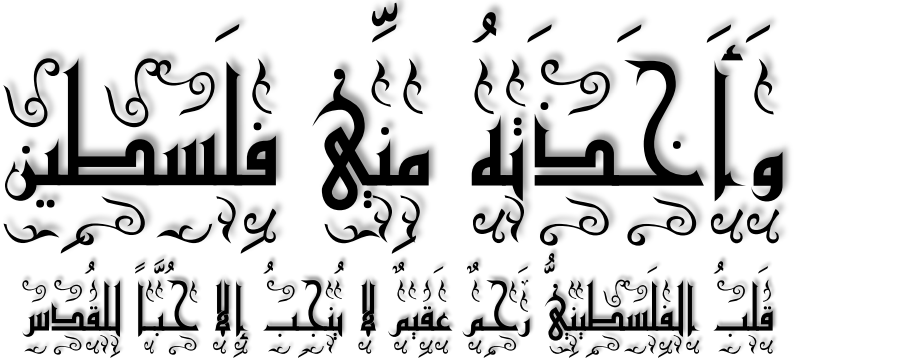

وَأَحَدَثَهُ مِنِّي فِلَسطِين

قَلبُ الفِلَسطِينيِّ رَحمٌ عَقيمٌ لا يُنجِبُ إلا حُبَّاً لِلقُدس

جميع الحقوق محفوظة لدى فريق أثر الثقافي

قلبُ الفلسطينيّ رحمٌ عقيمٌ لا يُنجبُ إلا حُبًّا للقُدس

وَأَخَذَتهُ مِنِّي فِلسطِين

رواية

تأليف : سيدرا حسين بربر

تدقيق : محمد أبورميلة

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي : محمد أبورميلة

الطبعة الأولى : ١٠\٥\٢٠٢٤

منشورات فريق أثر الثقافي

الإهداء

إلى كُل فلسطينيّ لا يزالُ على طريقِ الصَّبر ساكِن

كُنْ يا أخي على ثقةٍ أن ربَّ العبادِ يرى

وعِند اللّه قُدسنا مجبورةٌ لا تضيعُ.

إلى أرضِ العِزة يوماً ما ستكونينَ بينَ طيّاتِ الحُرية

ستكونين حُرّة عزيزة، كما الصِّهيونيّ ينوحُ على قارِعةِ الطَّريق.

إلى زهرةِ الغاردينيا سلامْ كوني دوماً مُفتخِرة ببطلكِ يونس

فبأمثالهِ قُدسُنا الطَّاهرة ستبقى دوماً فوق كلِ اضطهاد.

إلى أبي الذي يُدللني دوماً.. كم افخرُ بأني ابنةُ رجلٍ هو أنت .

إلى أمي التي كانت لي خير صديقة.

شكرٌ كبير لصديقي الشاعِر الُمتألّق محمد أبورميلة

على كل جهودهِ في هذا العمل.

سيدرا بربر

سلامٌ على مدينةِ الفسيفساءِ والياسمين.

سلامٌ معطرٌ إلى شوارعِ الشَّامِ العتيقة ... وبعد!

دمشق!

يا عاصمةَ الحضارة الممزوجة بتاريخٍ مجيد!

يا دمشق العتيقة

أتساءلُ كم أنتِ حنونة؟

أنتِ كأمٍ عطوفة لا تملك سوى أن تنثر الحب في دنيا أولادِها

أنجبت، وربت، وعاشت معهم لحظاتٍ عصية كانت كالتِّرياق لفؤادها المنفرط وجداً

شهِدت أولى خطواتٍ لهم وأولى كلماتٍ تلعثموا بإلقائها

وعندما شبّوا كأوراقٍ فتية، بدأوا تدريجياً بالانسحاب من بين جناحيها، وشقوا طريقاً لهم ، وكتبوا مستقبلاً لم تكن هي من ضمن أحلامهم الوردية، حلموا وعاشوا تقلبات حياتهم، وغاصوا بتجربةٍ وغرقوا بأخرى.

تناسوا رحم المرأةِ التي حملتهم تسعاً وأرضعتهم نداً، تناسوا هالاتها السَّوداء التي فضحت سهر ليالي مرضوا بها، كانت تصلي للّه بأن يأخذ من عمرها ويمدهم طويلا.

نفروها خارج صومعةِ أمومتها

سيعودون

نعم!، سيعودون إليها فهي إشارةٌ يجب عليهم اتباعها، لأنها ستوصلهم لأسطورتهم الشَّخصية

سيرجعون برأسٍ منكّس، ونظرةُ النَّدم ستسكن في عمق أعينهم

وسيكتشفون أن كل الطُّرق تؤدي إلى صدرها الدَّافئ

وهي ستفتح أبوابها في وجههم وتستقبلهم بابتسامةٍ واثقة، وبصدرٍ رحب، وبنفسٍ راضية.

هكذا عهدت نفسها وطناً لا يخون وملجأً دائماً لهم مهما ابتعدوا ومهما خيبوا أملها

سيعودون يوماً وهي لن تملك إلا أن تحتويهم في قفصِ قلبها الواسع

هكذا أنتِ يا دمشق كالأم لا تخون، ولا تقسى، مهما ابتعدنا عنكِ، ومهما حاولنا التحرر من قيود ترابكِ سنعود مذلولين فأنتِ الأمُ والأرضُ والوطن، ولا حياة دونكِ

يا دمشق العريقة! ، دمتِ لنا وطناً وموطناً

دمتِ لنا فخراً وعزاً وشموخاً.

في مصيدةِ الحب لا وجود لمصطلحاتِ كالتالية :

إلى الأبد .. طوال العمر .. لآخر رمق!.

لا وجود لسحرِ الـ "إلى ما لا نهاية سنبقى"

كل هذه الأمور تثير حسَّ السُّخرية

أيَّ حبِ هذا الذي يقوَّ على تحدي عجلةِ الزمن؟

أيّ قلب هذا الذي يستطيع الصّمود في خضمِ معاركهِ السّفاحة؟

بل أيّ شخصٍ يستطيع قهر ريحِ العاصفة حين تهبُ من مختلف الزّوايا!

لا الإنسان، ولا روحه، حتى قلبه غير قادر على تخطي تموّجات الرِّيح حين تُطِلُّ من بعيد

ريح الزّمن!!

حين تهب لن يبقى شيئاً كما كان

لن يعود الإنسان إنساناً

ولا الرّوح ستبقى نقية

كما القلب لن يعود ذاخراً بالحب .. الحب فقط.

الحب لم يخلق للحياة

مصطلح الحب وجِد فقط ليكون رفيقاً للحظةِ الرَّاهنة

الحب واللحظة الرّاهنة دون واو العطف بينهما، وحسب!

وما أشبهها تفاصيل هذه العاصفة بملامح فلسطين، هبّت على جدران قلبه، ما أشبهها بفيروس اقتحم خلية فؤاده، وبترو دخل إلى مركز القلب حاقناً مادة الحب فيها، صانعاً نسخاً فيروسية عنها تخص فلسطين وحدها، نسخاً كثيرة تكاثرت على مادة الحب وابتلعتها

أخيراً تيقَّنتْ:

في كلِ معارك قلبهِ الطَّاحنة

فلسطين تبقى وحدها الرَّابحة.

تتوارى هـهنا جوف ضلوع قلبي

شمعةُ الحب الذَّائبة.

تتوارى هـهنا بين متاهاتِ كياني

جديلةُ الحب المستعرة.

هـهُنا معشوقي متخفياً خلف معضلةِ الأنا.

أتى الصباح متفاخراً بعد ليلةٍ ألبست الأرض عباءةً ناصعة البياض، وكستْ قمم الجّبال بلونٍ أبيض وكأنه اللؤلؤ، يبعث بريقاً فريداً من نوعه فيغري أعين النّاظر بسحرهِ وجمالهِ الأخاذ، والأوراق تتمايل فرحاً والأشجار تحنو بدلال وكأنها تتراقص مع لحن الرّياح سروراً بهذا الثّوبِ الجديد.

في غرفةٍ صغيرة وعلى مقعدها الوثير تجلس بأريحية أمامها النيران تتوهج بشدة لتبعث شعور الدِّفء إلى نفسها المتجمدة، وكوبُ قهوةٍ عربية يتصاعد منهُ بخار مغري ليدغدغ حاسة الشَّمِ لديها، وهي تطالع ذاك الكتاب الذي سكن بين راحتيّ كفيها بكل فخرٍ، تقلّبه

بحرص شديد كأنه قطعةٌ أثرية تخاف أن تخدشها سرعة الرّياح العاتية، أو تلسعها أشعة النيران المتوهجة

ذاكـرةُ القُـدس!

وقعُ هذا العنوان كان شديداً على نفسها التي أُسِرت في جنبات أرضٍ خلقت للكدّ والشّقاء فلم يكن لاسمها أي صلة بما تعايشهُ الآن من شجنٍ ودمار، تملك وجهين؛ وجه مظلم على هيئة جرح بملامح وطن، كأرملة ارتدت ثوب الحداد ببقايا جمالٍ مهمل مغلفٌ بوجه من سلام مزيف فكانت فلسطين أرملة السلام.

باغتتها ذكرى تشييع والدتها بفاجعة فلسطين التي حدثت منذ عامٍ تحديداً في المسجد الأقصى، عندما قام الصهاينة بهجوم مباغت على المسلمين وهم في بيت الله لا يفعلون شيئاً سوى التّضرع لرّبِ الكون بأن يحمي ديارهم، وبأن يمدهم بسلاح الصّبر والعزيمة، بأن يمدهم بروح المقاومة، ودون تمهل أو رِوية راحوا يسفكون دماء الأبرياء نساءً ورجالاً، صغاراً وكباراً بدمٍ باردٍ ووحشيةٍ جبّارة، بقلبٍ تجرّد من

ذرَّة رحمة، وكأن القدر أراد لوالدتها الموت شهيدة بين ضلوع وطنها الذي احتضن من قبلها دماء آبائها وإخوتها الطّاهرة، لعل ترابه الحزين يروي ظمأهُ بدمائهم النّقية، ولعل جراحهم المؤلمة تندمل بلثم ترابه، وتتشرَّب عبيرهِ الأخاذ.

كانت والدتها وتدعى خديجة فلسطينية الجنسية وكحال الشعب الفلسطينيّ عانت من بطش الصهاينة فهجرت موطنها ومدينتها يافا مع الكثير من المهجرين ليتبعثروا إلى أصقاعِ هذا الكون، بعد أن شهدت مقتل عائلتها على يد المستعمرين، وسلب أرضهم الطاهرة لتكون مأوى ووطناً قومياً للعبريين.

كانت في عامها السادس عشر عندما هاجرت إلى دمشق رفقة عمها وعائلته الذي لم يبقَ لها سواه في هذه الحياة التي سلبت منها كل سبل السعادة والطمأنينة، سلبت منها أبسط حقٍ لها حرمتها من العيش بين كُنفات بيتها وفي حضن والديها.

استقرّت رحالهم في دمشق وفيها وجدوا الحب والسلام الذي افتقدوه مُذ كانوا صغاراً.

سرعان ما التحقت خديجة بالعملِ ممرضة في مستشفى الأسد، وهناك تعرّفت على الطبيب خالد الشامي فكان لها بمثابةِ قشةٍ تعلقت بها خوفاً من أن تغرق بمستنقعِ أحزانها العميق، كانت علاقتهما تتخطى علاقة الطبيب بمساعده،

إذ كان دوماً ينجرف إلى تيار رقتها الساحرة، لم تكن خديجة تحظى بجمالِ المرأة الشرقية، ولم تكن مثالاً للمرأة الأرستقراطية التي تتمتع بوفرٍ من الثقافة، كانت مجرد شابة تهجرت من صميم بيتها، وانتُشِلت من حضن عائلتها لتواجه الواقع المرير وهي لا تزال في مقتبل العمر كزهرةٍ تفتحت قبل موعدها، كانت عادية لكن ذاتُ عاديةٍ ساحرة فأعجب برقتها، وبدفء حضورها، بوتيرة صوتها الجميل الذي شبهه بنايٍ لا يعزف إلا ليئِنَّ من الألم مصحوباً بلحنٍ حزين.

لم يكن خالد من فئة الشباب الذين يحلمون بقصة حب رومانسية، أو درامية، ولم يكن يأمل أن يعيش قصة عشق مع فتاة أحلام كسندريلا تخطف قفص قلبه من موقعه، لكن خديجة لم تكن أيّ امرأة بل كانت مدينة من النساء، إنها فلسطينية مجاهدة .. وكفى! يكفيه أن تكون امرأة بمئة رجل جاهدت في سبيل استرجاع حقها بالعيش رغم معضلة الحرب التي تحيط بها، امرأة مقدسية الهوى، تكفيه راية الأنفة التي تزين وجهها ليهيم بها وكأنها ألقت عليه تعويذة واحتلت مدينة قلبه إلى أبد الدهر.

من النظرة الأولى سقط قلبه في براثن أنوثتها السَّاحرة، وأدرك أن لا محالة هي قدره ونصيبه فسارع إلى أمه يستنجدها لتطفئ نيران قلبه الظّامئ وجداً بخديجة.

أحـبها!

عقد قرانه عليها

وعاشوا ثلاث سنوات كانت بمئة عام وعام من الحب والحب فقط، وأثمرت شجرة زواجهم بفتاةٍ كضوء القمر في لونها، وزرقة البحر انصبت في مرفأ عينيها

اختارت لها خديجة اسم سلام وكأنها تعزي نفسها بابنتها لعلها تحظى بحلة السّلام التي تتوقت أن تحظى بها قدسها ومسقط رأسها.

أقسمت على نفسها أن تزرع بابنتها أرقى الصّفات الحميدة، أن تربيها على نهج القدس وأن تزرع بداخلها بذرة حب الوطن وتسقيها هي من نبع قصصها المتعلقة بأجمل ذكرياتِ غزة ومأثرها

لكن!

ما من سعادةٍ دامت طويلاً حتماً سينجلي النهار بضوئه النّاصع وبشمسه المتفائلة ليأتي الليل القاتم وليبسط الكون حنكة ثوبهِ الأسود وليعلن الحداد.

في ليلةٍ من ليالي شباط الباردة وبينما كان السّكون بحلّتهِ الطّاغية يحتلُّ شوارع الشّام العتيقة والليل ألقى رداء الصّمتِ الأملد وبينما النّاس تلحفوا برداءِ النّوم؛ شعرت سلام صاحبة الثّمانية عشر عاماً بترنحِ فراشها وكأنَّ أحداً يأرجحه بقوة، فتحت أجفانها بهلع اكتنف مسامعها صراخ وبكاء أطفال المبنى، وصوت نواح النّساء تولّول على فلِذةِ أكبادها، وكأنَّ هناك كارثة تحدث في الخارج، وفجأة انتبهت إلى أنَّ المبنى بكاملهِ يتأرجح وليس فقط سريرها يهتز بها والأرض تدور في مدٍّ بصرها، وأخيراً تنبّهت إلى صوت والدتها تصرخ باسمها:

– سلام! ، إن المبنى ينهارُ بنا ، هزةٌ أرضية أسرعي إلى الخارج.

اخترق صوت والدتها أذنيها ليصل إلى عقلها لِيُلجَمَ من صدمته

إذاً إنه ليس كابوساً حتماً!

ليس وهماً.

دقيقة، دقيقتان من التّفكير احتاجت لتكتشف مدى واقعية المشهد.

بدأ السّقف ينهار من فوقها فتهاوت على السّرير مجدداً تنتظر ملك الموت ليقبضَ روحها، أغمضت عينيها بسكينة وكأنها تعيشُ آخر لحظاتٍ لها على هذا الكوكب البائس، بدأت شفتاها تنطق بالشهادتين وعيناها لا تكُف عن إرسالِ سحبٍ من اللؤلؤ المكنون في أعماقِ محيطها.

وفجأةً! ومن جوف فتحةِ الأمل الآتية من عند الله الرحيم بعبادهِ، قام أحدٌ باقتحامِ غرفتها، سارع إليها وأسندها على كتفيه وهرعَ بها متجهاً إلى خارج المبنى يحاول الخروج سالماً من بين الرُّكام يحيطها بقامتهِ الفارِهة ليتفادى سقوط الأشلاءِ على هيكلها الصَّغير.

لم يكن سِوى بطلها وملاكها الحارس أباها الذي تعشقه!

وبينما هو يحثها على الرّكض إلى خارج المبنى تنبهَ أن السّقف سينهارُ على جسدِ طفلتهِ، وقبل أن يفكر بأيِّ شيء آخر دفعها بكلِ قوته بعيداً ليتهاوى السَّقف على جسدهِ المُنكمش، فيتحطمانِ معاً إلى أشلاء.

لا بأس!

وكل هذا الرُّكام الذي يكتنفُ جدران أرواحنا المكلومة في جوفِ خلايا الهدف تبدلت إشارةٌ كيميائية بنايٍ يُرسِلُ لحناً من الألم

إشارةٌ عِوضاً عن تحكمها بوظائِف الحياة ألبستنا ثوبَ الحِداد بحنكتهِ السَّوداء

وباتت أرواحنا أرملة للسلام

فأينَ يكونُ الخير؟ أينَ روحُ السَّلام؟

لقد رحل فأظلمت الحياة وتلاشى محور الكون

لقد رحل!

وسلبَ مقلتينِ كانت شمساً لا بل شمسين تغتسلُ بهما فتشعُ نوراً ساطعاً أخاذ

كم من طريقٍ للسعادة، للحب، للخلاص

وكم من طريقٍ نحتهُ القدر بريشةٍ تئِنُ هلعاً

كم ليالٍ ناحت

كم من ساعاتٍ سهرت لتُحاط عيناها بقمرين أسودينِ

وكم من لوعةٍ ابتلعت وصمتت عنها حتى باتت جرحاً بملامحِ إنسان

في ثلاث دقائق تحولت سوريا من طورِ التألق والثّبات إلى الشّيخوخةِ المُبكرة.

مِن النّور إلى حِلَّةِ الظّلام البائِسة

ركامٌ، دمارٌ، فراقٌ، وموت.

أرواحٌ تَئِنُّ هلعاً مِن سيلِ الدِّماءِ الجَّاري

نُحِتت لوحةُ الوطن بِكُلِ أشكالِ الألم

ركَعت الأبنية

تشرّد الأطفال

وامتزجت دموع الهلعِ مع رثاءِ الأحبة

فاختلَّ صمودُ سوريا، وكُسِرت مِرآتُها

وكلُ هذا في ثلاثِ دقائِق للجنونِ فقط!.

بعد تشييعِ والدها وإتمام مراسم الدّفن أبتْ والدتها أن تبقى في هذهِ البلد المنكوبة فما الذي سيربطها ببلدٍ أخذ منها البهجة والسَّكينة، اقتلع منها آخر شجرةٍ توارت خلف ظِلالها السَّخية، بلد سلب منها زوجها وضلع قلبها وعكازها بهذه الأرض .

قررت خديجة أن تبيع كل عقاراتِ زوجها في دمشق العيادة، الأراضي..، السَّيارة، وحتى المنزل، وكأنها لا تريد لأيِّ صلةٍ أن تربطها وابنتها بأرضٍ قيّدت أمانهم جوفَ داجِ التُّراب، ثم حزمت متاعها وركِبت طائِرة القدر التي أقلعت في فسحاتِ السّماء عابرة بين الغيوم لِتحطَ رِحالها وابنتها في مطارِ بيروت.

العنــقاء

بدتْ خيوط الشّمس مودّعة تستعد لموعد الرَّحيل

عانقت السِّحاب، وشكلت مع الفيوم لوحة خلابة من رونقٍ وعبير

ولَكِدتُ أمضي الليل ساهراً

أرقٌ يجتاحُ سلطان نومي

مُسهدٌ حدَّ الإعياء

وتِمثال الصمتِ يجثمُ فوق صدري كمستعمرٍ، كجلادٍ يحتلُّ حِباليَّ الصَّوتية

العنقاءُ أنا!

لكِدتُ كالغرابِ أنعقُ

خوفاً، وحرقةً من هذا المثلث الكئيب الذي لطالما أثار شجنيَّ

ظلامٌ احتلَّ أشعة نور كانت تؤنس سوداوية ليلي

تلاشت خيوط الحياة

وانعدمت سبل الطّمأنينة

... فتقوقعتُ جوف أنيابِ حُزني.

"ذاكرة القدس" ها هو آخر ديوانٍ صدر للشاعِرِ الفلسطيني يونس عبد القادر

شاعر فؤادها

شجرةُ عشقها

توأم روحها الأزليّ

و ... شاعر القدس.

الفلسطينيّ الذي تهجر من بلاده قهراً وقسراً، وسُرِق من حضنِ وسادتهِ ليواجه قسوة هذا العالم وظلمته.

عانى يونس اليُتمَ منذ صغرهِ، منذ انطلقت صرخاته في رحاب القدس لأولِ مرة. تُوفيت والدتهُ عندما كانت تنجبهُ إلى هذه الحياة، ضحت بروحها ليرى وجهه النُّور، ولتشق صرختهُ الأولى طريقها إلى أذنيّ والدهِ الذي تلقفهُ بين ساعديهِ بمشاعر متضاربة مكبراً في أذنيه الصّغيرة، مقبلاً رأسه الطُّفوليّ.

حين بلغ يونس العاشرة من عمره أرسله والده بقلبٍ ينزف شوقاً إليه قبل مغادرتهِ إلى لبنان حيث تقطن عائلة والدتهِ الرَّاحلة ليتلقى التّعليم أبسط حقٍ له في هذه الدُّنيا.

كانت لحظة الوداع مكللة بالمشاعر الفيّاضة، كانت لحظةً عظيمة ستبقى محفورة على سطح ذاكرتهِ إلى ما بعد الأبد.

رَشَقَ والده نظرةً كسيرة فهالهُ منظر الدُّموع التي تكابرُ مُختزِنة في مُقلتيه المحاطة بتجاعيدٍ خطّها الزّمن بحرفيةٍ عالية، كان يونس يحفظ هذه الخيوط جيداً في دماغهِ الكبير رغم صغرِ سنه، كلُ تجعيدةٍ كان لها حدث مميز، مثلاً هذه التي تكتنف عينيه ظهرت عندما مرض لمدة أسبوعٍ كامل حينها لم يذق طعم النّوم وبقيَ ساهراً بجانبهِ إلى أن ظهرت تلك الخطوط الحالكة حول حفرةِ عينيهِ، وتلكَ عندما تعرّض لحادثٍ نتج عنه كِسر في ساقه الصّغيرة، وتلك ظهرت له عندما توفيت والدتهُ وهي تصارِع السّرطان دون أن يملك أن يقدم لها شيئاً، أو يرحل بها إلى مكانٍ تتلقى فيهِ العلاج المناسب، كان عاجزاً أمام مرضها وأمام قِلَّةِ حيلته، كعجزهِ أمام هذا الظُّلم الذي تعانيه غزة وأهلها.

كان والده يُشِعُّ عظمةً، وقلبهُ يفيضُ حناناً ، حين يتعلق الأمر بغزة يصبح كالأسد شرساً، وكان هو قد ورِثَ كل صفاتِ والدهِ النَّبيلة بالإضافة لِسجيتهِ الشّاعرية، وبلاغتهِ الحميدة، كان كما الشَّبلُ من

ذاك الأسد. عزَّ عليه أن يرى والده بثوب الانكسار هذا، كم تمنى لو أنه لا يرحل من جانبه، كم تمنى لو لم يفارق هذا السَّند، هذا الأب والأم والأخ، كل شيء له بهذهِ الحياة، حاول كثيراً أن يثنيهِ عن قرار إرساله إلى بيروت، حاول بكل سلاحٍ يملكه وبكل حيلةٍ ممكنة لكنه لم يفلح بالتَّأثير عليهِ أو في ثنيهِ عن قراره هذا فقد كان يتتوق كثيراً لرؤيتهِ شابٌ بليغ، ومثقف، صاحب قضية تدعى المقاومة، يحمل شهادة الحقوق ليسعى بالدفاعِ عن فلسطين وحقها بالعيش وحريتها المفقودة، ليسعى في استرجاع أرضهِ المسلوبة.

تقدم يونس نحو والده الذي كان جالساً على الأريكة وقال له بصوتٍ مختنق:

– أرجوك يا أبي أن تعيد النظر مرةً أخرى في قرار سفري فأنا لا أستطيع العيش لِلحظة واحدة دون رؤيتك، أنت من بقيت لي من بعد موت جدتي كما أن مكاني هو هنا جوارك ، أريد أن أشُبَّ في غزة وعلى أرضها، أريد أن ألعب في أزقتها، أريد أن أكبر في ظلها

وأتدرب على المقاومة وحمل السِّلاح لأواجه العدو مع أخوتي في الميدان، لأدافع عن كل ذرةِ ترابٍ في وطني، أريد أن أبقى في جذر شجرتك السَّخية فأنت أبي وسندي بهذه الحياة وإن رحلت عنك سأفتقد أي شيءٍ قد يربطني بها.

زفرَ والده في قهر، وللحظةٍ خيّل إلى يونس أن أباه تراجع عن قراره ولكن هيهات.

– يا ولدي إن ذهابك أفضل للجميع، فأنا أريدك أن تتلقى التّعليم المناسب ككل الأطفال من عمرك وخاصةً مع هذه السِّمةُ البليغة التي تطفو على سطح أفكارك، أريدك أن تتربى عل أفضل نهج، وإن عدت يوماً إلى غزة سيكون بين يديك سبباً وسلاحاً تعمر الذي احتلَّ أراضينا عنوة.

– دعني أبقى هنا، وأعدك أن أكرّس حياتي وروحي فداءً لغزة

– الأمر ليس بالقوة وإنما بالعقل يا بني، فلنستمع لنداءِ عقولنا إن غزة الآن بحاجة إلى أبطالٍ مثقفين يخلقون عنصر التَّخطيط، بحاجةٍ إلى أشخاص مبتكرين يُعِدون

أكثر الأسلحةِ تطوراً لنجاري بها قذائف العدو وصواريخهِ المدمرة النَّاسِفة، القدس بحاجة إلى من يبث الحماس بأرواح شعبها أكثر من حاجتها إلى أبطالٍ يحملون السِّلاح ويقدمون أنفسهم طواعيةً إلى الموت دون رِوية، وإني بهذه النَّظرية لا أقصد أن أقلل من دور أبطالنا المجاهدين في ميدان المعركة فهم عمود فلسطين وحراسها اليقظون وأملها بنصرٍ قريب وحريةٍ آتية.

– متى يا أبي؟ متى ستزول هذه الغمامة السوداء عن سماء فلسطين، متى ستعود أرض السّلام لسابقِ عهدها؟

– لكل بلدٍ على هذه الأرض أسطورة تميزه عن غيره، هناك أشخاصاً وجدوا ليكافحوا الدَّاء والمرض، وآخرين خلقوا ليبعثروا الفساد والظُّلم في هذه الدنيا ، وهناك من خلقوا لتحقيق أحلامٍ متفاوتة تمكِنهم من

التَّنعم بعيشةٍ كريمة وهناك.. وهناك، أمَّا نحن مُذ كُنّا نطفةً في رحمِ أمهاتنا نحارب لننتزع حقنا بالعيش، لكل بلدٍ في هذه الدُّنيا مكانة بين أقرانها ولكل منها سلطةٌ قوية وسورٌ متين يحميها من أي سقوطٍ إلى قاعِ الهاوية، أمّا غزة فمكانتها وسورها المحصن تأتي من عند اللّه وحده ولا تضيع.

– والآن هل وجب عليَّ الرَّحيلُ تحت كمِّ الاضطهادِ هذا.

– ارحل يا ولدي إن كان لديك ولو ذرةَ حب لي، فلترحل بعيداً عن هذا الظلم.

ترعرع يونس في بيت جده دون حنان الوالدين فكانت جدته هي الأقرب إلى قلبهِ حيثُ أفرغت وقتها لتربيتهِ وتثقيفهِ على أفضل منهج، فتمثلت له بثوبٍ حريري نُسِجَ بخيوطٍ من الحب والأمل والوطن .

مُذ كان نطفةً في رحم والدته بزغت معهُ شمس حكمته وفاض نبع انتمائه لغزة، حيفا، رام اللّه... للأقصى لكل سنتيمٍ في حيِّزِ

فلسطين، وفي ريعانِ شبابه وعندما بدأ الدِّراسة في كلية الحقوق كما حَلُمَ والدهُ دوماً راحَ ينخرط في رثاءِ قدسهِ، ينثر أشواقه إلى عبق هوائها على مساحة أوراقهِ الضَّيقة، كان كالنبع فيَّاضاً وسخياً بشعرهِ وأحاسيسهِ الجيَّاشة، كان إذا أحب أعطى بملء جوارح قلبه، صاحبُ روحٍ شفافة كلونِ وجهه الأشهب، شهياً، مغرياً كفلسطين يتنافس الآلاف على احتلالها، وكأنَّ العسل اتخذ من عينيهِ موقعاً لينصبَ فيه، كان وبكل اختصار رجلاً عربياً فلسطينياً بامتياز مما جعلهُ فريسة لأعين كل فتاةٍ في الجَّامعة

كم من فتاةٍ تمنّت وصاله

كم من فتاةٍ لاحقتهُ بقلبها الخافق لكنهُ لم يكن يرى أو يبالي بكل الحسناواتِ من حوله، لم تصطدم نظراتهُ يوماً بامرأةٍ سوى سلام فكانت بعينهِ كل نساء الأرض.

ومنذ اللحظةِ الأولى حين كان جالساً بمقهى جوار الكلية يحتسي قهوته التي باتَ يدمنها بعد دخولهِ إلى الجَّامعة، ويستمع إلى صوت

فيروز الذي يتناثر في الجَّو مع ذراتِ الهواء، ويتأمل ملامح الأشخاص من حوله منهم من يجلس وحيداً بائساً وكأنه فقد شغفهُ بالحياة وفقدان الشَّغف أسوأ من الاكتئاب، وهناك عائلة يبدو أنها تحتفل بمناسبةٍ ما أصواتهم تتعالى وضحكاتهم تمتزج مع الموسيقا لتعطي لحناً من نوعٍ آخر .. لحناً دافئاً، موسيقا تضجُ بمشاعر الحنان والانتماء.

وعلى طاولةٍ أخرى جلس شابٌ وفتاة تبدو عليهم أعراضُ الهيام وتزين ملامح وجههم موجاتٌ عالية من السَّعادة وكأنهم قد حلقوا بعيداً عن نطاقِ المقهى، بل نطاقِ العالم إلى وطن لا يحكمه سوى الحب والأمان ولا تحلق في سمائه سوى فراشات العشق والغرام حيث أبدلوا لغة الكلام بلغةِ العيون، لم تنطق شفاههم بحرفٍ واحد ولكن عينيهم كانت تفيض بكلماتِ الغزل وكأن كلاً منهم يقول للآخر لم تعد حراً قيدتك عيناي، أنت النُّور الممتد بين قلبي والحياة وسأكتفي بك ما دام قلبي يطلق النَّبضات.

كان يتأمل ملامح الأشخاص من حوله ويدرس مشاعرهم ولم يغفل عن أحد، وفجأة! وقعت عينيه على فتاة تجلس بعيداً عن العامة ولا تعطي انتباهاً لأحد مُنكبةٌ على رزمةٍ من الأوراق يبدو أنها مدمنة دراسة، وجهها خالي من التَّعابير لا يستطيع أن يتبين شيئاً من ملامحها، بحركةٍ مفاجئة رفعت رأسها بحيث تقابلت مقلتيهم في لحظة سيسجلها تاريخ الحب بين سطوره العميقة لِما لها من مشاعرٍ متدفقة، منذ النَّظرة الأولى وقع قلبه عشقاً وكأنه اكتشف أن تاريخ الميلادِ في هويته مكذوب وأنه لم يولد إلا بعد أن وقع أسيراً في نهرِ عينيها السَّماويِّ وعلى نظراتها ولد مرةً أخرى، قتل هيكلاً فارغاً من اللاشيء ممتلِئ وأحيا كياناً ينبضُ بشتَّى درجاتِ الحب.

هل توقف الزَّمن لحظتها؟

كم دامت نظراتهم تلك؟

دقيقتين، ثلاث؟

أم خمس دقائق للجنون؟

أيمكن أن تفعل تلك الدَّقائق القليلة كل هذا الارتباك به؟

أيمكن أن تنهار حصونه المنيعة أمام موجِ عينيها المضطرب

أهذا هو ما كانوا يسمّونه بالحب من النَّظرة الأولى؟

طوال اليوم لم يفارقه هاجس تلك المرأة التي هبطت من سابعِ سماءٍ إلى منزل قلبه دون رِوية، حين جلس للطعام تناول من بقايا ملامحها المعلقة في ذهنه وحين تهيأ ليذاكر وجد صورتها تحتلُّ كل السُّطور ببسمتها المشرقة، وحين خلد للنوم زارتهُ في أحلامه.

في الصَّباح ذهب راكضاً إلى المقهى يسبقهُ قلبه المكدر لهفةً وشوقاً لرؤيتها، لأن يستمع إلى وتيرة صوتها التي يجهلُ لحنها قلبه، ليعرف اسمها لربما يجد تفسيراً لحالته هذه، لانقياده وراء ظلها السَّاحر ولذبذبات الجنون التي تجتاح أضلع قلبه الملوَّع. وحين وصل تبددت كل آمالهِ عندما لم يحدها بالمقهى وخيَّم عليه طيف كئيب

أين هي الآن؟

هل سيراها ثانيةً؟

كيف سيجدها؟

لا بدَّ أنها تعرفه، ومن ذا الذي لم يستمع عن الشَّاعر الفلسطيني يونس عبد القادر وعن مخاطبتهِ لغزة لريحها لجوِّها لمن فيها، وعن مقاومتهِ الشَّرسة للعبريين رغم أنه لم يحتضن يوماً أي بندقية ولم يسفك أي قطرة دم لصهيوني احتلَّ موطنه، مع ذلك كانت كل ذرة في وجدانهِ تحارب ببسالة بسلاحِ الكلمات وبعباراتِ النَّصر المحتوم لصالحهم، برثاء القدس وبفخره بها، بشجنهِ عليها، بحقهِ المسلوب بصلاةِ الفجر بالأقصى، بطهارة ترابها ونقاء هوائها المقيد، وبحريتها الآتية لا محالة.

أمضى يونس أيامه المتوالية ضجراً، قليل الصَّبر وهو الذي طالما عُرِفَ بمدى طولِ ثوبِ هدوئه الأملد وباستعداده الدَّائم لخوض سجالاتٍ أدبية مهما طالت أو امتدت لا تفتك بهدوء أعصابهِ ولا ينضب بحر ثقافته ولا تنتهي حواراته النَّبيهة، لكنَّهُ ومنذ قابل تلك المرأة لم

يهتدي لكتابة سطر سعرٍ واحد دون أن تشوِّش أفكاره وتغزو غريفات قلبه المرئي وتسحقها.

بعد ما بقارب الأسبوع عن تلك المصادفة التي قلبت حياته رأساً على عقب وأفقدت فؤاده طعم السَّكينة، بعد ليالٍ من الأرق، وبعد أسبوع من مصارعة قلبهِ لعقله تلك المعركة التي أطاحت كل ذرةٍ من عقلهِ إلى جوفِ نيرانِ قلبهِ المستعرة.

أخيراً رآها!

تندرِجُ مِن البوابةِ الجامعية كما يندرِجُ القمر وسطَ هالةِ السّماء السَّوداوية.

شامخة كقُبةِ الأقصى، شفافةٌ، رقيقة كالقُدسِ رُغمَ معضلةِ الألمِ التي تُحيطُ بها.

أنيقة كغزة وضواحيها رغم ملامحِ الحرب التي تعتري روحها، كفانوس يشعُّ نوراً رغم حنكة السَّواد التي ترتديها.

هي كما رآها أول مرة لم تتغير سُوى أنَّ بريق عينيها انطفأ ليحل موقعهُ غيمةٌ طفيفة من الكآبةِ العميقة، وكأنَّ وطن مقلتيها احتلّهُ شبح حزنٍ رماديّ!

عندما أبصرها تهلل قلبهُ وكأن فلسطين عادت إليه،

وكأنَّ غزة أمامهُ بكلِ سلامها، بجوها، بريحها، بذراتِ تُرابها بكل ما فيها بمن فيها.

فكيف لا يحبها!؟

كيف لقلبه ألا يتذوق لوعة الشَّوق في غيابها؟

وبأي حق يمنع نفسه من الذَّهاب إليها؟

وبأي عقل سيمنع قلبه عن الخفقان حين رؤيتها؟

وبأي حيلة سيمنع أخمص قدميه من مجساتِ استشعارها، والتَّقدم نحوها؟

حين عاد إلى رشده كانت قد ابتعدت عنه مسافة ليست بالقليلة فخاف أن تضيع منه ثانية ودون تردد ركض نحوها تسبقهُ لهفتهُ

كعادته، عندما أصبح بمحاذاتها نطق بحنانٍ ممزوج بالشوق، وبلهفةٍ مكبوتة:

– عُمتِ مساءً يا أنسة.

– أستاذ يونس! ، أهلاً تفضل.

وكأنه الكون قد توقف عن الدوران

وكأنه تخيّل نفسه برحاب أرضٍ يظنها المارِّين فارغة لكنها تضج بهما فقط

خرج اسمه من بين شفتيها وكأنهُ لحن موسيقي عذب

اندهش حينها وكأنه كان يجوب في رحاب هذا الكون دون اسمٍ أو لقب، مشرد لا أصل له إلى أن أتت هي فأعطته شرف هذا الاسم ووهبته ذاته.

– كيف حالكِ سيدتي؟ أعتذر بحرارة على تطفلي هذا، لا أدري ما أقول وكأن الوقوف أمامك قد طغى بهيبته على فلسفة لساني وألجم جمجمتي عن التَّفكير.

هي هذا الموقف وبعد هذه الكلمات الملغومة كان يجدر بها أن تتخذ خطوة أمان تخاف هذا الغريب الذي اقتحم طريقها لكن ماذا لو كانت كأي فتاة معجبة به حد النُّخاع، وتعشق أشعاره وتحفظها عن ظهر قلب، ماذا لو كانت جميع مذكراتها تضج بكلماتهِ اللذيذة التي لا يمل فؤادها من نحتها على جدرانِ غريفاتهِ المرئية .

ماذا لو أنها أحبت فلسطينيته المغرية ؟

ماذا لو أنها تجرّعت من كأس الإعجاب حدَّ الثّمالة .

حاولت أن تخفي لهفتها من كلماته الرَّقيقة، وأن تسكت دقات قلبها التي تضاعفت لأضعاف أضعاف خفقانها المعتاد، فأحست وكأن قلبها سيخرج من صدرها.

دارت مشاعرها الفيّاضة بابتسامةٍ صغيرة فتحت له دروباً من حرير وشقت طريقاً يمر فيه نور وجهها إلى مدينة قلبه المظلمة، ثم قالت بنبرةِ صوتها التي أصبحت محببة إلى قلبه :

– شكراً من كل قلبي على هذه المجاملة اللطيفة، لو تعلم كم أنني أعتزُّ بأنها صدرت من شاعرٍ مثلك.

– لو أنكِ قرأتِ بعضاً من أشعاري لعلمتِ أنني لا أجيد فن المجاملة، بل أكتب وأنطق بما يمليه عليَّ قلبي الصَّغير وليس سواه، ثمَّ إن عاديتك السَّاحرة وطلَّتكِ الغامضة تجعل كل شعراء هذا الكوكب يركعون أسفل قدميكِ مفتونين بسحرِ مُقلتيكِ الآسر .

– لا أعلم ما الذي يحتم على ثغري بنطقهِ فأنا بنهاية المطاف لست شاعراً أو تائهاً ذاب في شمعةِ العشق لأجاري أحرفك العطرة وأجيب بما يليق بكلماتكِ المعسولة ولكنِّي أعتقد أنك تبالغ قليلاً في مسألةِ مقلتيَّ الآسرة.

– بهذا الشَّأن تحديداً لا أبالغ، ولو تكرَّمتي علي وقبلتِ دعوتي إلى المقهى الذي رأيتكِ فيه للمرة الأولى سأناقشك في قضية مقلتيكِ الخطيرة التي كانت مصدر إلهامي وتشتيت بنات أفكاري في الوقتِ

ذاته منذ وقعت عليهما عيناي، وتأكدي أنكِ بقبول دعوتي تكونين قد غمرتي قلبي الملوَّع بك بكرمك وعطفك.

كان بإمكانه أن يخبرها عمَّا تفعلهُ به تلك المقلتين من اضطرابٍ وجنون لكنهُ آثر أن يستغل هذه الفرصة ليتأكد انها ستقبل دعوته.

أمَّا هي نظرت إليه بحيرة، كم تمنّت لو قلبت دعوتهُ الثَّمينة وحازت على شرف الجلُّوس معه على طاولةٍ واحدة لا يفصل بينهما سوى بضعةُ سنتيمترات ضئيلة، تناقشهُ في أفكاره المُتقِدة وتبسط أمامه لائحة انتقاداتها على دواوينهِ الشِّعرية، لربما حينها يعلم كم أنها مهتمة بتقصي أخبارهِ، وكم تملك هوساً في ترديد نصوصه المستعرة شوقاً وحباً وفقداً لغزة، عندما كانت تقرأ أشعاره تشتعل في داخل قلبها جمرة غيرةٍ مرئية من القدس لشدة ما يغازلها وكأنها عروسه الفاتنة ويرثيها كأنها امرأتهُ الرَّاحلة وكأنه أرمل فلسطين الحسناء، تغار عليه وتتمنى لو كانت قدساً واحتلّها هو بكيانه إلى الأبد.

نظرة لساعتها ثم قالت له بنبرةٍ متأسفة:

– أوه! اعذرني سيد يونس فأنا للتوِّ كنت ذاهبة للمحاضرة وعلى ما يبدو أنني تأخرت كثيراً ولن يسمح الدُّكتور بدخولي إلى القاعة إن تأخرت أكثر من ذلك، إذا أحببت بإمكاننا أن نلتقي غداً بعد نهاية الدوام الجامعي أمام البوابة الرئيسة وحينها بكل شرف وسرور سألبّي دعوتك اللطيفة.

– بالتأكيد أحب، وأشكر لكِ تنذرك بقبول دعوتي ولكن قبل أن ترحلي هل من الممكن أن تمنِّي على جند قلبي الذي يدق كجنون الطَّبل شوقاً ولهفةً لمعرفة اسمك، هذا الاسم الذي سأقدسه منذ اللحظة، هذا الذي سأنحته على جدران قلبي لأبعد أبد في تاريخ هذه النُّقطة الباهتة.

رمقته بدهشة! إن هذا الشَّخص لا يمكن أن يكون هو ذاته الشَّاعر يونس الذي سلب عقول قريناتها بجمالهِ الأخاذ وكاريزما شخصيتهِ المثيرة، لا يمكن أن يكون ذاته الذي سلب لُبَّ عقولِ النَّاس أجمعين بأحرف شعرهِ المتناغمة.

فكيف لشاعرٍ مثله أن يرمق فتاة لا تختلف بأي شيء عن سواها من النِّساء!

ليست بالساحرة .. وليست كفينيس أحلامه التي يغازلها دوماً في خواطره

كيف لشاعر مثله أن يكون مصدر إلهامه كما يدَّعي سحر مقلتيّ امرأة حتى اسمها يجهله!

إمَّا أن يكون مجنوناً .. أو مجنوناً لا محالة.

قالت له بسرعةٍ قبل أن تهرع للالتحاق بزملائها:

– إني لأستغرب وبشدة ملاحقتك لفتاة اسمها لا تعرفه، إن هذا ما يدعى بمحضِ الجنون، على أيِّ حال انا سلام الدمشقي من سوريا ولدتُ وترعرعتُ في دمشق، والآن وداعاً وأراكَ غداً كما اتفقنا.

كتبتُ على جدارِ الفصلِ أهواكَ أهواكَ

واشتعلَ فؤادي بلهيبِ عيناك

والرُّوح حنَّت لليالي الحب، لذكراك

قيلَ أن الأسير لا يحب سجانهُ

قلتَ يوماً لم تعد حراً قيدتك عيناي

فما بالُ قلبي غاص وتعمَّق في بحر عيناك

سقيتَ صحراء قلبي وباتت ورود بعد أن كانت محض أشواك

إن الهوى والجوى سكن مدينة الفؤاد

ازدهرت بحبك وناطحت السِّحاب

ما بال قلبك غادرٌ محتال

سكب هيامهُ بين ثنايا قلبي

فوقع أسيراً في جحيم السَّلام

أحببتك بروحي وكياني، لكنك بطبعك عاشق غدّار

سلبتَ مِني محور الكون ورحلت

سلبتَ مِني مياه بحارك الرَّاكدة فأصبحتُ غريقاً بلا ماء

هجرت قلبي فأصبح كمنزل آلمتهُ نوافذه من لوعة الفراق

رحلتَ وباتت روحي غابة بلا أشجار

فراشة بلا جناحان

أمسيت متيماً دون أحباء

فؤادي جريح، وروحي تحطمت لأشلاء

صرخت روحي بأن لعن الله معشرَ القُتَّال لعن الله كل من سلب

عاشقاً من محبوبٍ كان يتخذه جنة الحياة

إن ضاع منه ضاعت نفسه

وعظم الله أجرك يا قلبي

لكن الحياة لا تقف عند رحيل الأحباء

قُم! ولملم بقايا شُتاتِك الرَّماديّة

وأكمل سُنةُ الحياة

لعلَّ الله يرسل بعد الحزن أفراح.

سيقابلها غداً

سينظر في مصبِ عينيها دون ارتباك دون تخوّف سيغرق في أعماقِ

حبها

سيقابلها غداً

سيكونان وحدهما إذ أنه لن يعطي حواسه أو كيانه لرؤية أحدٍ سِواها

سيقابلها غداً

لِتَسرِق لُبَّ عقلهِ من موضعه، ولتنثر لمساتها المحملة برائحةٍ تشبه رائحة الغاردينيا التي سيعشقها بها في كل ذرةٍ من روحه

سيقابلها غداً

ليقتحم بيت قلبها كالبرق، ليحتلَّ كل زاويةٍ به، كل غرفة، كل سنتيم، كل شبرٍ به

سيقابلها ليخطف هذا الكم الهائل من الوحدة التي تعتري روحها، ليسرق هذه الغيمة الرَّمادية التي تسكن مقلتيّها

سيقابلها غداً

لِتنجدل الــ "هو وهي" في كلمة "الأنا".

إن أصعب لحظات الانتظار وأكثرها تعجلاً هي تلك التي تسبق لحظة الوصول إلى الهدف أو لحظة اللقاءِ المنتظر والمعلق رهن إشارة واحدة بخطوة واحدة .

تلك اللحظة التي تنتظر وقوعها بكل شغاف قلبك وتجزم أنك قادر أن تحيا على أملِ تحقيقها لآخر نفس، لآخر شهقة، لآخر العمر، ولكنك عندما تيقن باقترابِ وقوعها تشعر أن الوقت لا يمضي وكأنَّ دقات السَّاعة توقفت عن دورانها فبقيت قريباً إلى ما لا نهاية من هذه اللحظة وبالوقت ذاتهِ بعيداً إلى ما لا نهاية عن التقاط أطراف خيوطها الواهنة .

كان هو كذلك! بعد ليالٍ من الأرق والتفكير والتخيل ها هو الآن لا تفصله سوى بضعة دقائق عن وصول موعدهِ مع الحب، عن لحظتهِ الفاصلة. كان مستعداً أن ينتظرها طوال العمر فما باله الآن بات متعجلاً من تكَّاتِ الزَّمن التي تبدو وكأنها تآمرت على إذابة فؤاده بلوعةِ الشَّوق.

ترَّجل الطلاب من داخل البوابة الجامعية وكسرابٍ من الطـِّيور تباعدوا بعد أن تحرروا من قفصهم .

كان يرمق الفتيات بلهفة كلّما أطلت فتاة غرَّد قلبه فرحاً وظنها هي لكنها ما إن تقترب قليلاً حتى تثبت له فشل نظريته، طال به الانتظار فبدأت دقات قلبه تصدر تنبيهاتٍ قلقة بأنها لن تأتي بعد الآن، وخزه فؤاده بشدة هل هي أيضاً ستركله خارج مدينة قلبها؟

هل سيحرم من شخص أحبه مرة أخرى؟

يا الله ما أقسى هذه الحياة !

ألم تكتفي بما أذاقته لشعب فلسطين ؟

هل ستلاحقهم أينما رحلوا بسهامها الفتَّاكة؟

يا له من عاشق بائس

هل كان يظن نفسه قادراً على مجابهة ثوب قدره القاسي

يا لحماقته !

أوليس فلسطينياً، فماذا ينتظر من فرح الدنيا؟

أتى بكل شوق الدُّنيا ولهفتها

وها هو سيرحل بكل ركام خيباتها

أتى بكل أمل الدُّنيا وأحلامها الوردية

وها هو سيغادر صحبةَ واقعٍ مرير وأحلامٍ محطمة.

قرر أن يعود أدراجه إلى منزله، إلى قوقعة وحدتهِ الرَّاقدة بعد أن خانه القدر مرة أخرى برؤيتها، لكنه ما إن التفت مغادراً حتى سمع رنين صوتها وقد اخترق غشاء طبله ليصل خلسة إلى غريفات قلبه التي أظلمها هاجس فقدانه قبل الحصول عليه.

– مرحباً! كيف حالك.

طالعها بكل مشاعر الشوق التي باغتت قلبه آنذاك، كم هي جميلة، وكم يزداد عشقه لها كل يوم، اتخذها ملكة على عرش قلبه وسلام روحه، متى رآها ازدادت نبضاته سرعةً وتلاشت عبارات الغزل من على سطح لسانه خجلاً وتأثراً بسحرها الغامض، ما باله حين يراها يعود طفلاً استعادَ دميته

فلم تسعه الدُّنيا وفرحته.

آمنة كاسمها، كالسلام تهبط برداً على أقسام قلبه فيتضاعف عملها، وكالوقود تجتاز أبواب روحه فتستعرُ نارها حباً ونجوى.

– أهلاً بسلام قلبي الذي منذ تمثل أمامي بكيانه وطلّته المحببة إليّ بات حالي المكدّر وثوب روحي المنخرق في أفضل حال قد يكون بها.

– يبدو أنك تجيد فن الغزل بالنساء أيضاً، ظننتك لا تغازل سوى مدن فلسطين وشوارعها، ولا تحاكي سوى شعبها المقاوم.

– الفكرة ليست بنوع المدينة أو الشخص الذي نتغزل به وإنما بإمكانية رؤيته بعين العاشق، فأنا مثلاً لا أرى فلسطين على أنها مكان أو مدينة وإنما أراها أمي التي أنجبتني ووهبتني فرصة البقاء على قيد الحياة إلى هذه اللحظة، أمي التي احتوتني جوف أضلعها الدَّافئة، وأعطتني شوف انتمائي إلى أرضها فكيف لا أحبها وكيف لحدباتي التَّوأمية الأربع ألا تختزن صورتها في أعماق ذاكرتي .

– وأنا ما الذي دفعك لِمحادثتي بينما هناك الكثير من الحسناوات حولك ينتظرن لفةً صغيرة منك ليحرقن الأرض بما فيها لأجلك

– أمّا عن قضية تغزلي بكِ فهي حتماً قضية احتلال بيد أني لم أجد في مقلتيكِ سوى وطني الذي حُرِّم علي التَّنعم بالعيش في جنباته ولم أرى فيكِ سوى أمي التي حرمت من حنانها وعطفها، وأبي الذي فرَّقت بيني وبينه الحرب، لم أرَ فيكِ امرأة إنما مدينة تضجُ بالنِّساء، فكيف لي أنا المنقاد في دربِ عشقك لا المخير أن أمنع الشِّعر والغزل من السِّير على هذا الدَّرب؟!

– لماذا أنا؟

– لأنك أنتِ

– هذه ليست إجابةً مقنعة، لِمَ أنا؟!

– هذه الحقيقة، لأنكِ أنتِ وحسب! أنتِ من رأيتُ في خريطة وجهها لوحةً لأرض السَّلام، لوحةً نحتها فنان بحرفية باهرة بريشةٍ من سلامٍ افتقدناه منذ الأزل، لوحةً وجِدَت لأقع أنا في غرامها.

ابتسمت له بفخر وكأنها اكتشفت للتوّ امتلاكها فتنة العالم بأكمله، وكأنها امتلكت أجمل هدايا القدر وأغلى تعويضاته عن فقدانِ أحبائها حين اقتحم هذا الغريب صومعة وحدتها فباتت تَعِجُ بأثرِهِ.

– أتدرين يا سلام بتُّ أقدس هذا المقهى على بساطته فهو الذي شهد لقاءنا الأول والذي بدأت فيه معركتنا الفاصلة مع دين الحب هذه المعركة التي سأحارب فيها لا لأنتصر بل لأعقد اتفاقية مع الحياة من بنودها أن تنجدل روحيّنا بكيانٍ واحد، وأن نسكن سوياً مدينة العشق إلى أبعدِ أبدٍ في حياة البشرية، فنصبح بصيرة الحب بعد أن قاده الجنون وأفقده بصره لبرهةٍ طويلة، ونمنحه الحرية في ظلِّ امتداد حكم الجـنون الغابر.

رغم نبضاتِ قلبها التي انطلقت تدق كالطبلِ دفعةً واحدة، إلا أنها أرادت أن تكابر قليلاً:

– أرى أننا لم نلتقي إلا البارحة مساءً ولا أظن أنك بهذهِ السُّرعة وقعت أسيراً بين براثن أنوثتي التي تمتدحها، أيُّ أحدٍ سوانا كان سيتريثُ في أمرٍ كهذا.

– أنا لست واقعاً في غرامك منذ البارحة، بل منذ أول لحظةٍ وقع فيها نظري على مرفأ عينيكِ، قبل أن أراكِ لم أكن أؤمن قط بالحب الذي يقع منذ النظرة الأولى ولكن حين قابلتك رميتُ بكلِ نظرياتي عرض الحائط، لست أبالغ حقاً، فأنا قد وقعت أسيراً لكِ منذ أمدٍ بعيد.

ها هو مرةً أخرى يسكت أي كلمةِ احتجاج تخرج منها بكلامه الذي يشبه البلسم وتأثيره الذي يشبه السِّحر، أي شيءٍ ستقوله الآن لا معنى له فهي وقعت في غرامه قبل أن يعرف هو أنها موجودة في هذا الكون.

وعمّ المكان صمت ثمَّ.... صمت، ولكنه صمتٌ طفيف، خفيفٌ، جميل وفيه وحدها العيون كانت تجيد الحديث وتنسجُ بحوراً من الغزل، وغابات من العشق.

صمتٌ

وما الذي سيكون أجمل من الصمت حينما تندثرُ الحروف، وتغلق الحناجر

صمتٌ

نعم! فليس كل الكلام يقال!

ليس كل الكلام.

في مكان بأقصى الذَّاكرة محفورٌ اسمها بين الوهم والخيال

بين غاباتِ الحلم وصحراء الحقيقة

بين ليالي الجفاء وليالي المِلاح علق ظِلُّ امرأة

اجتمعت في خريطةِ ملامحها صورة كل النِّساء

امرأة!

كانت السُّمَّ والتِّرياق في آن واحد

امرأة!

سكنت في صفحةِ السَّماء على هيئةِ بدرٍ لا يضاهيهِ القمر نوراً

امرأة!

تمثل وطناً لمن لا وطن له كتفاً لا يستغني من الاتكاء عليهِ

امرأة!

تجسدت كل معالم الأمومة في قوانين قلبها

كالأب الذي يستحق كل التَّعظيم

الأخ السَّند

والأخُت الحنون

امرأة!

فلسطينية ملامحها

مقدسيةُ الهوى

دمشقية الهوية

امرأة!

تجمّع حسن الكون لينصب في مقلتيّها

امرأة!

آهٍ، كم أحتاج من عمرٍ وعمرٍ لأكتبها.

قبل رحيلهم تواعدوا لليوم التالي في المكان والزمان ذاته، وهكذا بدأت أسطورة حبهم بالنموّ والبزوغ من تحتٍ أنقاضِ التراب، ومع توالي الأيام تحوّلت نبتة عشقهم من بادرة حديثة الطَّليعة إلى شجرة عشقٍ لا تتساقط أوراقها ولا تهرم، فكانت له الأهل والوطن في غربةٍ فتكت روحهُ شوقاً، وكان لها الأمل والحب والوطن وتعويض القدر فباتت ترى فيه مشروع عائلةٍ جديدة ونافذة مستقبلٍ مشرق.

وفي أحدِ جلساتهم التي باتت مصدر أوكسجينهم، وباتت الأمل الذي اخترق ثوب خلاياهم الهدف ليرتبط مع المُستقبل النَّوعيّ وكأنَّ لقاؤهم اليوميِّ بات وظيفةً لا بدَّ من فعلها ليبقى كيانهم حياً ثابتاً على هذه الأرض.

باغتها قائلاً مُتغزلاً كعادته معها:

– كم أنتِ جميلة، وكم باتَ قلبي ثملاً من رائحة الغارديني التي لا تليقُ إلا بكِ.

ابتسمت له بدلال، ثم قالت:

– في المرحلةِ الثَّانوية كان لقبي فتاةُ الغارديني لِشدةِ ما أحبُ هذا العِطر، وإلى الآن لا يزالُ رِفاقي يخاطبونني بهِ.

– بلْ أنتِ فتاةُ قلبي لا الغارديني ولا سواها يحق لهُ أن يقترب منكِ، كم أغارُ من هذهِ الرَّائحة التي تتمتعُ بقربكِ، كم أغارُ من نفحاتِ الهواء التي تلامسُ ملامحَ وجهكِ الرَّقيقة، كم أغارُ من سحرِ الكونسيلر الذي يخفي قمريكِ الأسودين، هما لي وحدي، أنا فقط من يحقُ له استخدام سحرهِ لإزالةِ هذه الهالات.

– أوه! يا لك من شاعرٍ أناني.

– لستُ أنانياً وإنما أنا على يقينٍ تام بأنني أمتلك صكَ هذا الحق بامتياز.

– وكيفَ ذلك أيها الفيلسوف؟

أجابها بثقة:

– زوجتي المستقبلية، وحر بأن أفعل ما أريدهُ بها.

– يا إلهي! يا لهذهِ العنصرية، ثم من قال لك أنني سأتزوج بك؟

– وماذا ستفعلين إذاً؟

– أتزوج شخصاً لا يمارس عليَّ حق غيرته، والأهم ألا يشاركني في حبه وقلبهِ أحدً آخر.

– ومن يشاركِ الحب في قلبي؟

– فلسطين.

– أصبتِ بهذا الأمر، فلسطين ضلعٌ من قلب شعبها، لكنكِ لن تفعلي ذلك، لن يدخل إلى قلبكِ رجلٌ سِواي.

– حقاً؟ ولماذا؟

– لأنني حينها سأفتضحُ مشاعري التي أكنها لكِ في كل زاويةٍ من زوايا أشعاري وفي جوف السطور ونحت السطور وفوق السُّطور سأمارس الحب والفقد والشوق والنجوى عليكِ.

– مجنون

– أحبك.

– وأنا أيضاً أحب جنونك.

– جنوني خلق لأمارسهُ في حبك وإن رحلتي عنه لن يبقى وإنّما سيغادرُ رفقتكِ لذا ابقِ جانبي.

هزّت كتفيها بدلال، وقالت بثقة:

– لن أرحل سأبقى جوارك طوال العمر.

– كل الذين أحببتهم رحلوا، عديني أن تبقي داخل قلبي لنهرم معاً.

– أعدك يا رفيق دربي.

حينها لم يتمالك نفسه من فرط تأثره احتضن كفيها بحب، ثم طبع قبلةً رقيقة في باطنهما.

وهكذا ...

يُغرمون ببعضهم مجدداً وكأنهُ يومهم الأول

كل يوم يسرقون من دنيا الحب ما استطاعوا

كل يوم يغوصون بشاطئ الحياة أكثر من ذي قبله

يعيشون اللحظة وكأنها الأخيرة

ينهلون من بئر الحب بشراسة وكأنه ينذر بالنُّضوبِ القريب

يتجولون في الغابات بلهفة وكأنها ستصبح مشروع صحراءٍ قاحلة.

هكذا اعتادوا ...

لا شيء في هذه الحياة قابل للاستمرارية

لا السعادة باقية، ولا الحزن دائم

لا السَّلام باقٍ، ولا الحرب مستمرة

الأشخاص راحلون والدُّنيا فانية

وحدهُ الحب باقياً

وحدها المشاعرُ راسخة.

في اليوم التالي انتظرها أمام الكلية لكنها لم تخرج ولم تأتِ إلى الموعد كما اتفقوا سابقاً، فثارت ذبذبات القلق من مقلتيه ووخزه فؤاده بشدة

لن تأتي اليوم!

لن يبصرها!

هذا ما ينذره به قلبهُ، ويا لشقاءِ قلبِ العاشق الولهان

كيف سيمضي يومه دون رؤية وجهها المشرق ؟!

قد اعتاد على رؤيتها كل يوم

كل يوم يأخذ من جمالِ روحها حفنةً من الأمل يحارب بها نقص قلبهِ ومعضلتهُ المُلتاعة

ليحارب بها كرب الحياة ومشقتها التي فتنت بشعب فلسطين ولازمتهم أينما رحلوا.

هاتفها مراراً فلم تجبهُ

أيعقل أن يكون قد أصابها مكروه؟

هكذا هو دائماً ما يتصور أسوأ الاحتمالات

إنه محق أوليس فلسطينياً!

ماذا سيفعل الآن؟

ليتهُ كان يعلم مكان إقامتها، كيف لم ينتبه لهذا الأمر سابقاً؟

كان دوماً يقابلها بعد نهاية الدوام أمام بوابة الكلية التي تدرس بها فيتسكعان معاً في شوارع بيروت الأنيقة، ثم يفترقان عند موقف الباص، ربما لهذا السبب لم يكن بحاجة لمعرفة مكان إقامتها لكنه اليوم عنَّف نفسه كثيراً على هذه الملاحظة، ولم يستطع التَّركيز بأي شيء فعقله كان مشغولاً بها ومؤرقاً تحت تأثير بعدها.

وهكذا مضى عليه اليوم موزعاً بين القلقِ واللهفة تارة، وبين الحب والعتابِ تارةً أخرى، مضت عليه الساعات وكأنها دهرٌ من القلق إلى أن باغتتهُ مساءً باتصالها المحمل بترياقٍ لآلامِ قلبه المريرة.

– حبيبي، اشتقت إليكَ كثيراً

أجاب بلهفةٍ لم يخفيها:

– سلام هل أنتِ بخير؟ لم تأتي اليوم إلى الجامعة؟ أفزعتني كثيراً عندما لم تجيبي على اتصالاتي، كاد قلبي أن يتوقف خوفاً عليكِ وبدأت الهواجس تعتريني اعتقدت أن مكروهاً قد أصابكِ.

قالت بغنجٍ لا يليقُ بسواها:

– ألهذه الدرجة افتقدتني وفزِعت من أجلي.

– بل أكثر بكثير مما تتوقعين، أرجوكِ يا سلام لا تفعلي هكذا ثانيةً لا تزيدي عذاب قلبي أكثر يا نبض قلبي وروحه.

– أوه! لا تقلق يا عزيزي أنا بأفضلِ حال لولا أنني افتقدك كثيراً، كل ما هنالك أن عمتي التي تقطِنُ في دمشق جاءت لزيارتي فلم استطع تركها وحدها لذلك لم اذهب للجامعة، وحين هاتفتني كانت جالسة جواري ولم أكن قادرة على الإجابة، وانتظرتُ إلى أن تأكدت من نومها وعاودت الاتصال.

– أوه حقاً؟ يا لهذا الخبر الرائع، كم أنني مشتاقٌ لرؤية أحدٍ يحملُ شيئاً منكِ، كيف حال عمتك؟ هل أعجبتها بيروت؟

– هي بخير، لكنها لا تملُّ عن مقارنةِ بيروت بشوارعِ الشَّام وأزقتها العريقة، كما أنها تنتقد منزلي كثيراً مدعيةً أنه ليس شرحاً كمنزلنا السابق في المزة، أنت تعلم سيدة دمشقية أصيلة.

زفر بحرقةٍ، وأجابها:

– أجل أعلم وأشعر بها فالإنسان حين يغادر موطنه لا يغادر كلهُ بل يترك روحه فيه مأسورة في أسطورة أرض لن تتخلى عن احتوائه أبداً، كما أنه لن يجد الطمأنينة إلا في منزله وعلى وسادتهِ الحريرة المزركشة بخيوطٍ أصيلة من تراثِ بلدهِ الحبيب.

– عمتي ستحبك كثيراً إن قابلتك فهي أيضاً تؤمن بهذهِ النظريات، كما أنها قلّما تثني عليك وعلى خصالك الحميدة التي استنتجتها من أشعارك.

– هذا شرفٌ عظيمٌ بالنسبة لي، وبمناسبةِ المقابلة ما رأيكِ أن تخبريها أنني وفاطمة نتتوق لزيارتكم غداً مساءً إن لم يكن هناك أي إحراج.

– ومن تكون فاطمة هذه؟

سألتهُ بشيءٍ من الغيرة استشعرها هو فضحك بدورهِ قائلاً:

– فاطمة تكون جدتي، أحب أن اناديها باسمها مجرداً دون ألقاب فهي أقرب لأن تكون صديقتي أكثر من أنها جدتي.

– ماذا جدتك! وهل أخبرتها عني؟

استطاع أن يلتمس في صوتها نبرة الفرح، وتخيلها وقد توردت وجنتاها فجأة وباتت أشبه بحباتِ الطَّماطم

شهية

فرِحة

مرتبكة

طفولية

يا الله ماذا تفعل به هذه الصغيرة الساحرة تكاد تقوده الجنون اشتياقاً – وما الذي كنتِ تتوقعينه؟ أن أظل كاتماً حبك في قلبي وكأنه ذنب أجلد بهِ غريفاته؟

لا، وألف لا. إن كان حبك قد فرض على قلبي ونقش اسمكِ على أحجاره فلن اخبئه في قلبي بل سأصرخ بكل ذرة صوتٍ في حباليَّ الصوتية أني أذوب عشقاً في مصيدةِ عيناكِ السَّماوية

وإن كان قيس مجنون ليلي فإن يونس في بحر عينيّ سلام

وإن كان محمود درويش ينثر مشاعرهُ لريتا بين ثنايا أشعاره فإن يونس نحت اسم سلام على أحجار قلبه وامتلكت هي مفاتيحه بامتياز.

حينها لم تتمالك نفسها وتجمعت دموع الفرح في مقلتيّها

هذا الرجل لا يملُّ عن مفاجأتها بسجاياه المميزة

هذا الرجل لا يفتك عن سبر خلايا جسدها ولا يتوقف حبه عن اقتحام أوردتها

كم تحبه !

كم تهيم عشقاً في ملامحهِ؟

يا للسخافة فكيف لا تحبه؟

فهو رجل لا يدع الخيار لأحدٍ بترتيبِ مشاعرهِ

لا خيار له فإمّا أن يحبه، أو يحبه

هكذا رجل إذا احتلَّ قلب امرأة لا يدعُ مجالاً لغيره بالدخول وكإنه

يعلن أنه امتلكهُ وهو من حقهِ وحده

هكذا رجل وكأن كل حنان الدنيا اجتمع فيه

هكذا رجل وكأن كل رجولة الكون هرعت لتنصب في عروقه

هكذا رجل وكأن نوعه انقرض منذ أمدٍ بعيد

فكيف لا تهيم عشقاً؟

كيف لا تذوبُ حباً؟

كيف لا تتعلق فيه؟

سألته بحذر وكأنها ستدخل إلى حقل ألغام

– وماذا فعلت جدتك حين أخبرتها عن قرار ارتباطنا، هل غضبت عليكَ؟، أم أنها كانت تريد لك أن ترتبط بفتاةٍ فلسطينية تليقُ بشاعرٍ...

قاطعها مستنكراً:

– تليق بي! ما الذي تقصدينه؟

– لا أقصد شيئاً فقط أقول ربما جدتك لا تقبلُ بي.

– ليس الذي تظنينه، فأنتِ لا تعرفين فاطمة، فاطمة هذه امرأة عظيمة بكل ما تعنيه كلمةُ عظمةٍ من معنى، امرأة اجتمعت فيها رقة العالم بأكمله، فاطمة تملك أحنَّ قلبٍ بهذه الدُّنيا، امرأة طيبة القلبِ والقالب، حين أخبرتها أنني أريد الارتباط بك تجمعت دموع الفرح في عينيها، حتى أنها لم تعاتبني عن إخفائي أمر هام كهذا عنها، وإنما اكتفت بتغطية بيروت بثوبٍ من الزغاريد، كل ما تريده جدتي أن تراني سعيداً وكأنما علمت بفطرتها أن سعادتي لن تكتمل إلا بقربكِ.

– ما باله قلبي منذ مضيت فوق عتبتهِ لا يرسلُ اللّه إليه إلا سحباً من الأفراح!

– إن اللّه سبحانه يرسل لكل شخصٍ بهذه الدنيا توأمٌ يملي عليه حياتهِ، وأنتِ تكونين نصفي الذي كان ضائعاً وبكرمهِ تعالى قد عاد إليَّ ليُملي على قلبي الهناء.

– ما هي أخبار فاطِمة الآن؟ هل هي نائمة؟

– أوه! لقد أرهقتني طوال اليومِ بتساؤلاتها التي لا تنتهي حولك، وحين علمت أن والدتكِ فلسطينية أصرَّت أن أرتب لها لقاءً معكِ لتطلب يدكِ بشكٍ رسميّ تباعاً للعاداتِ والتَّقاليد، وأنا لن أجد موعداً أفضل من الغد حيث سيمكن لها اللقاء مع عمتكِ، فما رأيكِ يا حبيبتي؟

أطلقت همهمة موافقة قبل أن تردف بهيام:

– يا لحظِ فؤادي برجلٍ مثلك.

– حقاً؟ وما به رجل مثلي ألا يستحق أن يمتلك قلبكِ يا صغيرتي الشَّقية؟

حينها رفعت حاجبيها باستنكار

– رجل مثلك ليس فقط يستحق أن يسكن قلبي، وإنما أن يتوج سلطاناً على عرشهِ لآخر العمر، يا لهنائِهِ بحبيبٍ مثلك يمتلك قفصاً يتسِعُ للعالم بأكمله، أدامك اللّه لي حبيباً وموطناً أبدياً يا كل العمر.

لم يقوَ على الكلام أمام حروفها المعسولة التي ضاهت قصائد الشعراء بتأثيرها على جنةِ حبه، بل كادت أن تسحق جنة حبه عشقاً، هذه امرأة مغرورة أكبر من أن ينعتها بكل كلمات غزل العالم

امرأة مثلها أكبر من أن ينثر الحب نفسه في ساحات قلبها، إن الحب بمشاعره الجيّاشة يبقى قاصراً أمام سحر بساطتها

هذه هي أنثى الحب.

لم يجد إلا كلمة وحادة يقولها خرجت من بين شغاف قلبه تحمل كل المشاعر، فليس كل الكلام يقال

- أحبك يا فتاة الغاردينيا.

"قيدٌ من حب"

طِفلي يا طيبَ القلب

حبيبي يا سيدَ الحب

اشتقتُ، كمِ اشتقت

كم اشتقتُ اللونَ الأسود في عينيك

كم اشتقتُ كمَّ البهجةِ في روحك

كم اشتقتُ ينابيعَ الحنانِ في قلبك

كم اشتقتُ أن أتوارى آمِنة خلف ظِلكَ الفارع

كم اشتقتُ عِطركَ المميز، تسريحتك، نظرتكَ الحالِمة

كل تفاصيلك الحبيبة، كل ما فيك

تفاصيلٌ صغيرة بك كادت أن تدفعني للجنون الحتميِّ

ما أعظمكَ حبيبي!

ما أشبهكَ برجلٍ أروعَ ما في الوجود!

شيءٌ ما فيك يُحِيطني بقيدٍ ناعم

قيدٌ من حب يلّتفُ بسلاسة خارجاً عن المعهود ... حولَ قلبي

ويأسِرُ قلبي، ويأسِرني كُلي معهُ

قيدٌ رغم هشاشتهِ، يخيلُ إليَّ أنهُ صُنِعَ من دمك العطر

دماؤك التي كانت دوماً لعنتي

وما أشبهها بفوبيا الحب أعانيها!

قيدٌ رغم سهولة كسره؛ لم استطع معه المقاومة

فهو وكما قلتُ يا سيدي العزيز

فوبيا لا أزالُ وسأبقى أعاني أعراضها

فأنا يا قِطعةً من القلب، يا كُلَ القلب

كصفحةِ سماءٍ ولكنها مثقوبة، تقفُ أمام حرمِ الشَّمس التي تسللت

خِلسةً بأشعتها المتلألئة من ذاكَ الثُّقب

أعقدُ ماسٍ وانتهي حبنا؟

فلا أنا منكِ ... ولا أنتِ لي

وكلُّ ما قلنا، وما لم نقلْ

وبوحنا في جانبِ المنقلِ

تساقطت صرعى على خاتمٍ

كالليلِ، كاللعنةِ، كالمنجلِ

أخيراً أتى اليوم المنتظر

تقف أمام مرآتها تطالع زينتها للمرة العاشرة لترتسم على ملامح وجهها إمارات الرِّضا

كم هي متوترة اليوم

وكم سعيدة

تكاد دقات قلبها تخرج من صدرها خجلاً وحباً

بماذا تشعر الآن؟ الفرح؟ البهجة؟ الخجل؟ الحب؟، أم الامتنان؟

لا، لا! إنها تشعر بمزيجٍ من الأمان ترعرع داخلها منذ أن صدمت بموج عيناه المضطرب، لم يراودها هذا الشعور الطفيف منذ فترةٍ طويلة، منذ فقدت والدها بذلك الزلزال اللعين الذي شرّد الكثير من

البشر وهدم البيوت ونثر الخراب في أنحاء سوريا الحبيبة، وكما اصطحب معه الكثير من الأهالي والأطفال اختطف منها قطعة من ضلع قلبها وزلزل روحها، هزة رغم رحيلها تركت لها بصمةً لن تندثر من على سطح قلبها، بعد مدة لم تتجاوز السنة وحيث أنها لم تتعافَ من جرحها القديم بعد فقدت والدتها بحادثة قطّعت نياط القلوب وأدمت أرواح البشر أجمعين على شعب فلسطين الشقيق ومأساتهم الحانكة، فقدت هي والدتها آخر ما تبقى لها من أمل، آخر ما تبقى لها من حياة.

كم كانت الحياة جاحدة معها

كم كانت قاسية لتحرمها في يومٍ كهذا من حضنِ والدتها ومن حنانها، ومن نعمة الاستماع لإرشاداتها، وحرمت والدتها من الفخر بحبةِ قلبها في هذا اليوم

كم كانت قاسية لتحرمها من حكمة أبيها وحصنه المنيع، من وجوده معها ليكون سندها وحارسها الذي إذا طلبت منه النجوم أتاها حاملاً السماء.

حين وصلت ذاكرتها لهذا الخاطر أجهشت بالبكاء، فهطلت الدموع على وجنتيها بسخاء.

– يا إلهي! يا قلب عمتكِ لمَ هذه الدموع اللؤلؤية؟ لمَ تبكين هكذا يا ابنة الغوالي؟

هتفت بها عمتها التي دخلت لتوّها لتطمئن عل ابنة أخيها وهي ترافع كفها لتلطم صدرها بحركة تنمّ عن هلعها.

أجابتها سلام بهمسٍ مختنق:

– تذكرت والديَّ، لمَ يا عمتي؟ لمَ رحلا وتركاني وحيدة مجرّد ورقة مكلومة ابتليت بثوب الفقد على هامشِ الأيامِ الكريهة، ألا يجدر بهما أن يكونا جانبي في هذا اليوم؟ ألم يكن عليهما أن يفرحا لأجلي؟

– آهٍ يا طفلتي كم يحملُ قلبكِ الصَّغير من ألم، ثمَّ من قال لكِ أن والديكِ رحلا؟ هما دائماً معك روحيهما ستبقى تحميكِ وستبقى ذكراهما في قلبكِ حية حتى لو أنهما لن يكونا قربكِ، تأكدي يا غاليتي أنهما ما كانا ليفرحا إن أنتِ حزنتِ في يومٍ كهذا، عليك أن تكوني صامدة وسعيدة ليسعدها هما بكِ، وكما أنني أنا بجانبك لن أفارقكِ ألا يرضيك؟ هذا أم أنكِ لا تأنسين لقربِ عمتكِ يا شقية؟

من بين دموعها تقوّس ثغرها ببسمةٍ ممتنة ودفنت رأسها في حضن عمتها.

– أدامكِ الله لي يا عمتي سنداً وموطناً ولا حرمني الله من حنانكِ يا غالية.

احتضنتها عمتها بحنانٍ جارف

كم عانت هذه الصغيرة في حياتها

كم من مرةٍ أحست بمرارةِ اليتم في حلقها

رغم وجود عمتها جوارها دوماً

ورغم احتواء جميع أفراد العائلة المَرَضيّ لها إلى أنها لا زالت تحمل في مثلثاتِ قلبها البريئة كثيراً من المساحاتِ الفارغة.

دعتِ اللّه في سرها أن يحفظ ابنة أخيها ويرزقها بالزوج الصالح الذي يعرف قيمتها ويملأ عليها حياتها، وينثر الحب والسكينة في ساحاتِ قلبها الفارغة.

– أوه! كفانا عواطفاً الآن، إن الضيوف سيصلون في أيِّ لحظة، أم أنكِ نسيتِ شاعرك وخاطبكِ يونس يا قرَّة العين؟

قالتها عمتها وعند كلماتها الأخيرة غمزتها مشاكسة

فارتسم شبح ابتسامة على ثغر سلام

تنسى!

وهل ينسى القلب سارقه؟

هل ينسى المرءُ موطنهُ؟

هل ينسى الفلسطيني مغتصبه؟

إن كان الموت لا ينسى موعده فكيف للعاشق أن ينسى روحه؟

كادت أن تجيب عمتها لولا أن رنين الجرس قد قاطعهم وانتشلها من رقودها

لقد أتى!

يا الله ماذا ستفعل الآن، وكيف تستقبله بكلِ هذه المشاعر الفاضحة في عينيها ؟

سارعت عمتها لاستقبال الضيوف بينما هي وقفت أمام مرآتها

تشعر بالكثير الكثير من الارتباك

والكثير من الخجل

وأكثر بالحب

بعد مدة حسبتها دهراً من الانتظار المربك جاءها صوت عمتها تناديها للخروج، تأملت ملابسها لآخر مرة ثمَّ حثت خطاها بقلبٍ مضطرب نحو غرفةِ الجلوس.

– بسم الله، ما شاء الله، بدرٌ منير تعالي واجلسي جانبي يا ابنتي لأتنعَّم في رؤية وجهك الملائكي.

كانت جدته التي قالتها بلكنتها الفلسطينية المميزة

ابتسمت لها سلام بخجل فظهرت غمازتها اليتيمة التي كانت كثيراً ما تثير جنونه وقد توردت وجنتيها بحمرةٍ خفيفة زادتها جمالاً على جمالها

أمّا هو فطالعها بنظرةٍ عاشقة مهووسة ككل مرة

كم هي فاتنة هذه الشَّقية

وكم هو مفتونٌ بفتنتها !

بكل حالاتها

جميلة

حبيبة

ساحرة

لكنها اليوم مختلفة !

حلوة كقطعةِ السُّكر

جميلة متوردة كحباتِ الفراولة

ناعمة نظراتها كحريرٍ أملد

ولذيذة كما هي دائماً

وكم هو معذب باشتياقهِ الجَّارف لاحتضانِ خصرها وإخفائها بين ضلوعهِ

اللّه وحدهُ يعلم كم هو الآن يجاهد مشاعرهُ العاشقة، وقد ازدادت جمالاً وهي ترتدي فستاناً سماوياً كلونِ عينيها وشريطاً كلونِ فستانها قد وضعتهُ حول شعرها الأسود الغجري فباتت فاتنة كعروسِ الحكايات

تورُّدِ وجنتيها الذي يشبهه بحباتِ الفراولة، وتلك الشَّامة التي تسكن أسفل عينيها تُرى كم أصبح عدد الأشعار التي كتبها ليتغنى بسحرِ شامتها، يا إلهي كل هذهِ التَّفاصيل تثيرُ جنونهُ وتشعلُ نظراتها عشقاً وشغفاً

ماذا تفعلين يا صغيرة بهذا القلب البائس؟

ماذا تشعلين؟

– سبحان اللّه العظيم! سبحانهُ عدد ما خلق! هل هناك جمالٌ كهذا في بيروت؟، وردٌ أزرق! يا لذوقكَ الرائع يا بني.

قالتها عمتها وهي مبهورة بباقةِ التُّوليب الزَّرقاء التي جلبها يونس.

لم تمهلهُ جدته فرصة ليجيب حين انطلقت ضحكتها الحنون مشاكسة سلام بقولها:

– آهٍ يا ابنتي! لو رأيتِ هذا المجنون وهو يجول محلاتِ الورود جميعها باحثاً عن باقةِ توليبٍ أزرق، مصرّاً ألا يبتاع نوعاً غيرهُ، لعلمتِ كم هو مفتونٌ بالبحرِ الذي يجوبُ في مقلتيكِ.

خجلت سلام من كلام جدتهِ، فأردفت عمتها:

– حفظك اللّه يا بنيّ، يبدو أنك لست بارعاً بالشعر فقط، بل تملكُ ذوقاً رفيعاً أيضاً.

– حفيدي يونس كان دوماً مختلفاً عن أقرانهِ، حتى ذوقهُ بالورود مميز ككلِ ما فيه.

قالتها وهي تنظر إلى سلام بفخرٍ، فابتسمت برقة وهي ترمق باقتهُ الخلّابة بسعادةٍ غامرة

أزرق!

كم تعشق هذا اللون!

وتعشق كل ما له صلة بهِ

فكيف وهذه الزهور هو من انتقاها؟

رفعت عينيها إليه بعشقٍ جارف فالتقتْ بشمسٍ بندقيتهِ التي حملت ألف وعدٍ ووعد بحبٍ إلى مالا نهاية

عانقها بعينيه عناقاً مزج كل حنان الدنيا وأمانها

كل حب الدُّنيا وفرحتها

كل عذاب الدُّنيا وشوقها

– ما رأيكِ يا سلام أن تصحبي يونس في جولةٍ ليرى حديقة الأزهار التي تعتني بها.

أومأت لعمتها برفق، ثم نهضت عن الأريكة تصحب يونس إلى حديقتها المتواضعة، وحين تأكد أنهما بمفردهما قال لها بعتابٍ مصطنع:

– كم أنتِ ظالمة يا فراشتي.

ضحكت ضحكتها المهلكة وهي تهتف بمكر:

– سامحك الله يا حبيبي أنا ظالمة! أم أنك تريدُ أن تورطني بجرمٍ لا علاقة لي به وتوقعني بالفخِ أيها المحامي الماكر؟

ضحك بانطلاق ثم أجابها:

أورطك! كيف هذا وأنتِ يا طبيبة قلبي قد مارستِ مهنتكِ بسوءٍ، فبدلاً من أن تشفينِ من دائكِ تحايلتِ عليَّ وزدتني هياماً وولعاً بك.

تناولت كفه بكفيها وهي ترمق بسهامها الفتّاكة لتهمس بمزيجٍ من الغرور والدلال لا يليقُ سوى بها

– وهل عشقي لكَ بات داءً يا شاعر قلبي ومالكهُ! أم أن سحري المهلك أسكركَ بعبقهِ المخمليّ؟

– بل هي عينيكِ يا فراشتي، عينيكِ كم أهلكتني عشقاً، وكم أغرقت سفني واقتلعت راياتي غصباً من جذورها، كم أحبك حباً يفوق مشاعر الأرض بأكملها يا أجمل أحلامي، يا كل أحلامي، أحبكِ يا سلامي، أحبكِ يا حصادَ العمر كله.

أطرقت رأسها بخجل ودقات قلبها تكاد تتقافز عشقاً

كم يحبها هذا الرَّجل

كم هي محظوظة برجلٍ كهذا

حبذا لو يتوقف الزمن بهذه اللحظة

حبذا لو لم يفترقوا أبداً

تألق ثغرها ببسمةٍ مشرقة أثارت ذبذباتِ جنونه ثانيةً فهتف بحزنٍ مصطنع:

– أوه يا أميرتي! إياكِ أن تفعلِ هذا ثانية فحينها لن أضمن تهوري.

ابتسمت بدلال فأكمل كلامه هامساً وهو يجذبها من كفها إلى الدَّاخل:

– سنذهب الآن إلى عمتكِ لأطلب منها أن نسرع بإجراءات عقد القران، فأنا لم أعد أطيق صبراً مع حركاتكِ الجنونية هذه.

ضحكت بانطلاق هاتفة بعبثٍ طفولي:

– توقف يا مجنون! ليس هكذا.

– أنتِ قلتها مجنون يا فراشتي، مجنون بعينيك فكيف أقمع جنوني بعد الآن وقد بات عطشاً بشدة لاحتوائك في بحر جنونه الذي لا ينضب!.

رايـاتٌ مِن حُب

ها قد دخلتَ أخيراً صومعةَ احتياجي

فنثرتَ الحُب بتروٍّ

بتلاتٍ، بتلاتِ

ومنحتني جوازَ سفرٍ لبلادِ الغرامِ

ومن خريفِ قلبي سحبتَ أوراق هرمي بكلِ حنانِ

لِتسقي زهور قلبي بكلِ ما امتلكت الأرض من عطاءِ

ومن خريف عمري تقتلِعُ ربيعَ روحي

لِتكونَ أميراً يسكُن نهر اشتياقي

فارساً توّجتهُ سلطاناً على عرشِ أحلامي

أين كنتَ وهذا العِشقُ يا ساحِري؟

بيمنا كنتُ أتخبطُ في موجِ أيامي

إني لأكادُ أحترقُ بذبذباتِ سخطي

على أيامٍ لم تهديني صكَ حبك إلا بعدَ اختبارٍ قاسي

هكذا الحُب يكون؟!

حلوٌ دونَ شوائب

أطيرُ في علوِّ سمائهِ كطائرِ العنقاء حُراً دون قيود

كم كانَ العُمرُ دونكَ يضيعُ هباءً

حتى أتيتَ خِلسةً وسبرتَ أغوارَ روحي

وتضاعفتْ فراشاتُ الحُبِ في غُريفاتِ قلبي

وسقيتَ صحراءَ قلبي، فباتت ورداً بعد أنْ كانت محضَ أشواكِ

وزرعتَ في قلبي ألف وعدٍ ووعد

وزهوراً

وغاباتٍ بلا انتهاءِ

وقبساتُ نورٍ أضاءت حِلكةَ أيامي

ومنحتني قيداً من عِشق كان أشدَّ احتياجي

لِأكون دوماً أسيرةً في سجنِ عشقكَ بلا إفراجٍ فُجائِي

فما عُدتُ أهتمُ بماضٍ غابر، أو بغدٍ مجهول

ما عُدتُ أهتمُ بتقلباتِ أحوالي

فما حاجتي بأحدٍ وأنتَ جِواري تسكُبُ الحُبَ في بحرِ مُقلتيّ

وتكونَ رايتَ سُفُنِ أُمنياتي

وتنثرُ الأُلفةَ في جوفِ خلايا هدفي

فتتبدلُ إشارتها الكيميائية بأُخرى

تحمِلُ من الحُب ما يفوقُ صفحاتَ عُمري

أُناشِدُكَ اللّه يا مُنقِذي

إلا تُغادِرَ فتغرقُ سفينةُ أحلامي.

برد كوب قهوتها وهي شاردة بتفاصيل ديوانهِ الأخير، أول ديوانٍ صدر له بعد عقدِ قرانهما وبقدر ماهي فخور بهِ خائفة أضعاف أضعاف بهجتها، وكأنَّ شيء ثقيل يجثم على صدرها ويمنع روحها من ارتداء ثوب الفرحِ الرقيق، وكلّما جاء ذكر فلسطين بينهما ينقبض قلبها بضيقٍ خفيّ لا تعلم سبباً له، دون شعور منها تعود ذاكرتها

لتفاصيل موت والدتها على يدِ العبريين في المسجد الأقصى فيجرفها تيار الألم إلى مستنقع الموت

فقدت والدها بهزةٍ أرضية

ووالدتها لقيت مصرعها على أيدي الظَّالمين

كل هذا يبعثُ الرُّكام في ثنايا روحها

كل هذا يزرع جذوراً عميقة في أرضِ فؤادها

ويمزقُ قلبها لألفِ قطعة

إن ما يعزّيها في مصيبتها أنهم آمنين

شهداء عند اللّه مكرمين.

كما أن يونس العزيز جوارها ولن يدعها تعيش ألم الوحدةِ بعد الآن لن يسمح للريح بأن تؤذي شجرة عشقها، سيعيش لأجلها ويرفعها ملكة على عرشِ الحب كما أخبرها.

لكن!

ماذا لو أخذتهُ فلسطين ؟

كما أخذت والدتها جوراً

ماذا لو تحققت كوابيسها الدَّائمة

خاصةً مع هذا العشق الذي يحمله لعيوبها قبل مزاياها في قلبه

حباً يفوق حبه لها

وشوقاً لا يضاهيه شوق العالم بأكمله

منذ مدة وهي تقرأ في عينيه رغبته بالسِّفر إلى غزة لكنه لا يصرّح بشيءٍ أمامها

ربما يخشى زرع الخوف في قلبها بعد أن غمره بذبذباتِ الأمان

وربما يخشى أن تعارض رغبتهُ، أو تحاول ثنيهُ عن قراره

لكنها حقاً تستطيع فعل ذلك؟

هل تقوى على منعه؟

وإن هي فعلت

هل ستسامح نفسها على فعلتها ؟

لا، وألف لا هي لن تحرم يونس الحبيب من زيارة غزة

إن هو أراد فليذهب

ولترضى هي في قسمة الرَّبِّ لها

هو سيذهب في نهاية المطاف

إنها متيّقنة من ذلك

ربما لأنها تشعر به، وقلبها ينبؤها بهذا الخاطر

ألا يشعر القلب بصاحبهِ؟

ألا تشعر الأنثى برجلها؟

ألا يتحدث المحبين لغة العيون؟

جرفها تيار ذاكرتها إلى اللقاء الذي ترك بداخلها خوفاً لم تستطع قمعه، كان ذلك قبل حفل زفافهم بيومين، كانت يومها قد ذهبت رفقة عمتها لشراء ثوب زفاف يليق بزوجة الشاعر الوسيم "يونس عبد القادر" حين فاجأها هو باتصالهِ المشحون بذبذباتِ متوترة يطلب منها اللقاء بأحد المقاهي زاعماً بأن هناك أمرٌ هام يريد أن يناقشها بهِ فتركت ما بين يديها دون اكتراث ثم سارعت للمقهى يرافقها

شعور بالخوف لا تدري مصدره، شعور كريه لم يراودها منذ قتلت والدتها ببساطة إثر طلقةٍ نارية اخترقت جدران قلبها وقطعته إرباً.

حين وصلت إلى المقهى رأته جالساً على طاولتهما المفضلة التي تشرف من علوّ على بحر بيروت السَّاحر، تقدمت نحوه بسرعة وسألتهُ بلهفة:

– يونس! ما بك يا حبيبي؟ هل أنت بخير؟

لم يجبها يونس الذي أطرق رأسه في أسى مما جعلها تردف في جزع:

– باللهِ عليكَ يا يونس أخبرني ما الأمر؟

– المجرمين.

– ماذا تقصد؟

– الإسرائيليون شنّوا هجوماً آخر على غزة لقيَّ فيه الكثير من الأهالي حتفهم وتوفيَّ فيه ابن عمي طاهر، ألا تذكرين؟ حدثتكِ عنه كثيراً، كان شاباً رائعاً مغواراً قاتل ببسالة حتى آخر قطرةٍ من دمهِ، مذ كنّا

صغاراً عاهد نفسه أن يعيش بالقدس وللقدس ويموت لأجلها وقد فعل.

دفن رأسهُ بين كفيّهِ ثم أكمل بصوتٍ مُتقطع :

مات طاهر عزيزاً مكرماً وهو يدافع عن حقهِ بينما أنا! هربت كالفأر جباناً من رهبة المصيدة

ماذا سيحدث لو كنت أنا بدلاً منه؟

ماذا لو تذوقت نشوة عرسِ الشهادة؟

ماذا لو حاربت لأجل قدسي

لأجل أشجارها قبل سكانها

لأجل ريحها قبل أنهارها

ماذا لو كنت جديراً بلقبِ الفلسطينيّ بحق؟.

منعت دموعها بصعوبة وهي تتقدم لتجلس جواره وتضمه إليها هامسة بحنان:

– هوّن على نفسك يا حبيبي ولا تحمّلها فوق طاقتها، طاهر قد مات شهيداً وينتظرك في الجنة حيث سيلقى راحتهُ، في الجنةِ سيكون نصيب كل فلسطينيٍ مجاهد إن شاء الله، ويا لحظِ المظلوم عند ربهِ يا يونس ثم من قال أنَّك جبان؟ ومن مثلك يعشق فلسطين بهذه الطريقة؟ من مثلك يستحق لقب الفلسطيني؟ أنت الذي نذرت لها قلبك قبل جسدك

وعشقكَ لها قبل شوقك

وكلماتك لها قبل سيفك

من مثلك يستحق هذا الفخر يا شاعر فلسطين وراثيها

يا فقيد غزة وضواحيها

يا ابن فلسطين وفخرها

يا ضلعها ومحاميها.

تنهد يونس في إحباط:

لو تعلمين كم هي حاجتي لعناقٍ كهذا، لحبٍ كهذا اشتاقكِ يا سلام، اشتاقكِ جداً يا فراشتي.

ربتت على رأسهِ بحنو ثم هتفت بحب:

وأنا أيضاً أفتقدك كثيراً يا حبيبي، أفتقد أحرفك السَّاحرة ونظراتك الحانية اشتاق كل ملامحك ما يعزيني أننا قريباً سنجتمع إلى الأبد، قريباً جداً.

ابتسم بشرود مستسلماً لدفء كلماتها الحميمة

– لكن إن كنت تريد تأجيل موعد الزفاف صدقني سأتفهم ذلك.

– لا! لن نؤجل الزفاف أكثر. هتفَ بحزم، كما أن تأخير الزفاف لن يفيد أحداً، لن يعيد طاهر، لن يعيد أولئك الأبرياء الذين ماتوا ظلماً، لن يعيد شيئاً كما كان فقط سيزيد عذاب اشتياقنا أكثر وأنا لم أعد أطيق هذا العذاب، هل تفهمينني يا سلام؟.

أومأت برأسها في تفهم وهي تدرك قدر احتياجه لها ليتخطى مصيبته ويا لها من مصيبة

يا لها من لعنة لن تغادر حياتهما

يا لها من لعنةٍ راسخة لن تندثر عن ثوبِ روحه

يا لهذه اللعنة التي لن تدعهُ لشأنه

لن تدعه.

ساد المكان صمتٌ ثقيل قطعهُ هو حين راح يهمس بشرودٍ حزين مسَّ قلبها بصدقه:

– أتعلمين يا سلام! لكل إنسان على هذه الأرض بغية يسعى جاهداً لتحقيقها وأسطورة خاصة به تميزه عن غيره، لكلٍ مهنته وسببه الذي يعيش من أجله وكذلك القدس مهنتها منذ الأزل هي التصدي والمقاومة

من خلال تحفيز شعبها على حمل السِّلاح وخوض المعارك التي لا تمد للعدلِ بأيّ صلة، المعارك التي أجبروا مكرهين عليها ولكن ليس لتحقيق أحلامهم وحسب إنما لاقتلاع وطنهم عنوةً من بين براثن

العدوّ وللبحث عن أرض السَّلامِ الحبيبة، وها هي أسطورتهم جميعاً تشترك بعوامل الصُّمود والأخوّة سعياً وراء ثوبِ الشَّهادة.

أومأت رأسها بتأييد، ثم أردفت بإعجاب:

– رأيتُ صوراً لفلسطين كانت أمي تحتفظ بها مع الكثير من الذكريات الجميلة وسحرتني بجمالها، في الحقيقة أنا لا ألومُ المحتلَّ على فعلتهِ الشَّنيعة، فهذا يوضح لنا كم هي فلسطين كنزٌ ثمين وكم أنتم محظوظون بها، أنا التي لم أرَ فلسطين إلا في الصور ولم استنشق هوائها العطر لمرةٍ واحدة تأثرتُ بسحرها فكيف لهؤلاء الذين رأوا خيراتها وتمتعوا في نعيمها، كيف لهم أن يتخلّوا عن جنةٍ كهذه خاصةً مع هذا الجشع الذي يشع كالبرق من أعينهم!.

– فلسطين هي أمنّا الحسناء الرقيقة التي كانت محط أنظارِ من حولها فتنازعوا لأعوامٍ في كسبها إلى أن انتهى المطاف بها أن تباع بأبخسِ ثمن، فأين هي روح العدالة التي تناقلتها الأجيال فيما

بينها؟ أين يكون متجر السَّلام؟ لعلنا نبتاع بعضاً منه لقدسنا التي خلقت لأجله ولم ترمقه أبوابها أو تعرفهُ أسوارها.

نظرت إلى عينيه لتجد غمامة حزنٍ مريرة تسكنهما فأردفت بحزن:

– قلّما كانت والدتي تحدثني عن فلسطين مهد الديانات وشعبها المناضل، منذ كنت صغيرة وهي لا تتوقف عن سرد كل تفاصيل يافا، الأقصى ومنابر غزة وكل حضاراتها وكأنها تريد أن تزرع بداخلي بذرةً من روح هذا الوطن، كأنها تريد أن تفرغ مشاعرها الجيَّاشة تجاه يافا داخل قلب الصَّغير.

– هكذا الأمهات لا يتصرفن بحكم العقلِ وإنّما بعاطفةِ قلوبهنَّ السخية.

– ربما تكون على صواب، أمي كانت ترى نفسها بي وأنا صغيرة وتراني أملها وأمانها وأهم أسبابها لتستمر في معضلةٍ أنجبتها لتصرعها

– في الواقع لم أطلب منكِ المَجيء لأقاسمك مصيبتي الجَّديدة، على الأقل ليس هذا السَّبب الوحيد.

تردد قليلاً في متابعة حديثه لكنها ضغطت على كفهِ بمؤازرة تحثه على إفراغ جوفه من ثقل آلامهِ فاستأنف كلامه بشرود:

– منذ مدة وأمي تزورني في أحلامي، بكلِ مرة تقتحم نومي أرى في عينيها نظرة عتاب كسيرة وفي كل مرة تقودني لتلةٍ كبيرة أصعد وراءها كأنني مسحور وحين أصل إلى القمّة انظر بانبهار لصورةِ غزة التي ينعكس بريقها في مرآةِ عينيَّ

تتمثل أمامي بكل هيبتها وفتنتها الطِّاغية، مختلفة تماماً عن تلك التي باتت عليها الآن

هادئة..

وديعة تماماً

يتبعثر السلام في زواياها كما كنت أتخيلها

لا أثر فيها لقصف

ولا آثار لمعركةٍ ليست بعادلة

ولا وجود لرائحة أي مغتصب في هوائها.

زفر بقوة وأطرق رأسه في مرارةٍ لم ينجح بإخفائها، ثم عاد يرفعه ثانية ليقول بتماسكٍ هشّ:

– ماذا كانت تقصد بهذا؟ ماذا كانت تريد أن تخبرني؟ باللّه عليكِ يا سلام أجيبيني، أتراها كانت تذكرني بأن القدس بيتي وملجأي الوحيد وبأن أبي لازال هناك، أبي الذي تحمّل وحده ألم رحيلي أبي الذي ضحى بقرّةِ عينهِ

فقط ليحميه..!

ولم يكن يبالي بما سيجري له بعد أن أرحل عنهُ

كان جلَّ همهِ وتفكيرهِ ينّصب على شيءٍ واحد

كيف يبعدني عن دائرة الحرب

فقرر مذبوحاً أن يرسلني إلى بيروت وحدي، أمّا هو فآثر البقاء في غزة ليحمي ديارنا من عدٍ مغتصب وليعتني بشجرات الزيتون التي

تكتنف بيتنا من كل الجهات فلا تذبل ولا تنحني، أم أنها كانت تريد أن أحتفظ بصورةِ القدسِ في قلبي كما كانت طاهرة، نقية قبل أن تكسو ملامحها طعناتُ الزَّمنِ الغادرة.

عضّت على شفتيها بقهر وهي تمنعُ دموعها بصعوبة

يا الله!

كيف يكون هناك شخصٌ هكذا؟

يجمع في قلبه كل عشق الدُّنيا لفلسطين

وكل ألم الدُّنيا لفراقها

ألهذهِ الدرجة هو متعلقٌ بوطنه؟

ألهذهِ الدرجة هو مخلصٌ لغزة

هل كل رجال فلسطين هكذا؟

عاشقين ترابها

مقيدين في مصيدةِ سحرها

أم أنها هو ليس كغيرهِ

مختلفاً ومميزاً في كل تفاصيلهِ

ألا يقال أن هناكَ شواذٌ دائماً لكلِ قاعدة

إذاً هو كان من الشُّواذ

نعم! يونس يقدس فلسطين

يقدسها بكل ما ملكت الأرض من إخلاص.

انقبض قلبها بخوفٍ لم تبالغ فيهِ، ورغماً عنها وجدت نفسها تسألهُ بحذر:

– يونس! أنت تعلم أن الأمور في فلسطين ازدادت سوءاً في الأيامِ السَّابقة، حتى أن الفلسطينيون يخططون لثورةٍ كبيرة ويطلقون عليها "طوفانُ الأقصى" لن يهدأوا ولن يتريثوا إلا بعد استرداد حقهم، كما أن الجميع يشهدون أن فلسطين ستمر في أيامٍ حرجة جداً في الأيامِ المقبلة.

توقفت قليلاً عن الحديث لترى تأثير كلماتها عليه ثم أكملت بتردد:

– هل.. هل فكرّت في الذهابِ إلى غزة في وقتٍ ما؟

نظر إليها بدهشة، ثم أطرق رأسه قليلاً وفتح شفتيهِ بتردد وهو يهمُ بقولِ شيءٍ ما لكنه عاد يطبقهما من جديد

ماذا عساه يقول؟

ماذا عساه يخبرها عن انهيارِ روحهِ هذه الأيام؟

خوفه وقلقه المَرَضِيّ على والده يكاد يستدرجه للذهاب إلى غزة ولو سيراً على الأقدام فقد ليرى والده وبعدها فليحدث أي شيء

روحه الهشة ترجوه بالعودة إلى غزة ولو زحفاً على ركبتيهِ فقط ليعد أما عقله فأنّبهُ على هذه الهواجس فكيف له أن يرحل ويتركها وراءهُ وهو يعلم أنها لم تعد تملك سواه في هذا الكون وأن رحيلهُ سيقصم ظهرها ويشعل نار قلبها من جديد، هو عائلتها الوحيدة في هذه البلاد وبالطبع لن يفكر باصطحابها معهُ

لن يجازف بفقدانها هي الأخرى

يا الله! كم هو ضائع

ها هي روحه ممزقة بين نداء قلبه وإصرار عقله

وكم روحهُ ممزقة؟

زفر بحرقة، ثم قال:

– دعي هذا الأمر للأيامِ يا حبيبتي.

أفاقت من ذكرياتها على صوتهِ الحبيب وهو يناديها من الخلف

– ما بها فراشتي كثيرة الشُّرود اليوم؟

زفرت بحيرة ثم أغمضت عينيها وقالت:

– وما الذي ستشرد به فراشتك وأنت تحتل كل زوايا تفكيرها؟.

– اقترب منها وهمس بقلق:

– ما بكِ يا سلام؟.

ما بها!

أيسألها عن حالها؟

أيسألها وهو طالما كان لها أقرب من حبل الوريد؟

أحقاً لا يشعر بهذا الألم الذي يعتصر قلبها!

ألا يشعر برداء الخوف الذي تلبسها عنوة؟

حتى أن حبه بكل سلطانهِ لم يستطع أن ينفض هذا الشُّعور عن سطحِ روحها

أيسألها ما بها وهاجس فقدانهِ الذي يحرقها ويلتفُ حول قلبها لم يعد يفارق ظلها

تتناوله مع طعامها

وتتجرّعهُ مع مشروبها

وتحتضنهُ في نومها

وتحملهُ معها أينما رحلت

أيسألها الآن بعدما تركها تتخبط في صومعةِ خوفها عليه

بعدما تركها تتوقع أن يفارقها في أي لحظة ليهرع إلى جنةِ قدسه

ولتحترق هي في جحيم وحدتها

ما أقسى قلبك يا رفيق العمر!

ما أقساه!.

ابتلعت انكسارها وأجابته في خفوت:

– أخيراً صدر ديوانك الجديد، مباركٌ لكَ يا حبيبي.

– بل مباركٌ لنا يا فراشتي ألسنا شخصاً واحداً؟ أليس نجاحي هو نجاحكِ أيضاً، ألم تسمعي بالمثل الذي يقول أن وراء كل رجلٍ عظيم امرأةٌ أعظم؟ وأنتِ! أنتِ أحلى وأغلى وأعظم امرأةٍ في الدُّنيا.

تجمعت الدموع في مقلتيها وعانقتهُ قائلة:

– طبعاً يا حبيبي كل ما يسعدك ينقش الفرح على ثوبِ روحي، وكل ما يحزنك يقطّعُ قلبي لأشلاء.

– أسأل الله إلا يجعلني يوماً سبباً في حزنٍ يصيبُ قلبكِ يا فتاة الغاردينيا.

ابتسمت بخفة ثم قالت:

– ما الذي كنت تفعله بالأعلى، لِمَ تركتني أجلس وحدي؟ أم أنك سئمت رفقتي بهذه السُّرعة.

– سئمت!! آهٍ يا طفلتي كيف لقوقعةِ ظلامي أن تلفظ خيوط النُّور التي طالما تمنتها بشدة، وكيف لقلبي الذي طالما تمنى وصالك أي

يملّ هذه النعمة، أنتِ الآن بروحك الملائكية وحضورك الطّاغي كأسٌ من الحب ارتشفهُ ولا أرتوي، ارتشفه وأصل به إلى حد الثَّمالة.

– كم هذا القلب محظوظ بعاشق مثلك يا يونس لكنك لم تجبني ماذا كنت تفعل بالأعلى كل هذا الوقت؟.

– أرسمك.

– ترسمني؟!.

– نعم، في الحقيقة كنت أحاول أن استدعي أفكاري لكتابة مقالةٍ كلفتني بها وزارة الإعلام ورغماً عني رحت أتذكرُ ملامحك وعيناكِ السَّاحرة ودون وعي رحت أرسم تفاصيل وجهك المحفورة بين ثنايا قلبي.

باغتتهُ مشاكسة:

– وماذا كنت ترسم فيَّ يا عبقري زمانك؟.

ضحك بانطلاق ثم داعب وجنتيها قائلاً:

– رسمت لوحة أنتِ موضوعها هاكِ تفاصيلها

رقيقةٌ عذبة.. في القلب حاضرة تعتلي الحمرة وجنتيكِ

عياكِ فيهما شيءٌ جديد.. نظرةٌ غامضة، شيء من الإغراء

وشفتاكِ الكرزيتان تحملانِ دعوة صريحة للتقبيل

أمّا عن وجهكِ لا يسعني وصفهُ.. وجهُ يشبهُ النور في نقائهِ

اجتمع حسن الكون في ذاتك

فاتنة في كل حالاتكِ

إن ابتسمتِ يشتاق الدّمع أن ينساب على وجنتيكِ

وإن حزنتِ انطفئت أنوار الدُّنيا لأجلكِ

آهٍ كم أحتاجُ من عمرٍ وعمرٍ لأكتبكِ.

دمعت عيناها بتأثر، ثمَّ قالت له بدلالها الفطريّ

– حسناً أيها الشَّاعر الوسيم يبدو أنَّ فراشتكَ طمّاعة ولا يكفيها كلامك القليل، ما رأيكَ أن تغازلها أكثر لعلّك ترضي غرور قلبها.

ابتسم بشقاوة، ثم قال لها بمكرِ عاشق:

– فراشتي الغالية لا تكفي وصفها كلمات غزل العالم بأكمله، وعشقي لها أغلى من أن تعبر عنهُ درجاتُ الحبِ كاملةً، حبي لها شيءٌ مقدس لم يعثر له العلماء في دين العشقِ عن أيِّ مصطلحٍ أو تسمية حتى اللحظة الرَّاهِنة.

مطّت شفتيها باستياءٍ مصطنع، فداعب أنفها بأنفهِ ثمَّ راح يلقي على مسامعها أكثر الكلام رومانسيةً:

– أتمنى لو أملكُ الآلاف من المُقلّ لأعيش على شطِ عينيكِ لعمرٍ أطول لأحصد أكسير الحياة من غابةِ عينيكِ

لاكتسبَ وعداً.. ووعداً بأن تكوني لثوبِ روحي المنخرق أحلى وطن وأن تكوني لقلبي الصَّغير أمان العمر كله

أتمنى وصخبُ الرِّيح يكتنفُ أمنيتي ويسأل:

ما بال عينيكَ لا ترتوي من مشاهدةِ رداء المطر؟ فأقول:

وهل يرتوي السَّكرانُ أم يثمل؟.

نظرت لعينيهِ نظرةً حملت كل عشق الدُّنيا، نظرةً لا يعبر عنها بحر من الكلامِ المغزول، وتعلّقت في عنقهِ قائلةً:

– واللّه لوّ تمّثل حنان الكوكبِ الأرضيِّ في كفة ووضع حنان هذا القلب الذي يسكن بين ثنايا ضلوعكَ في كفةٍ لكانت كفّتكَ الرَّاجِحة.

قبّلَ وجنتيها برفق فعادت ترفع رأسها إلى السَّماءِ قائِلةً:

– هوِّن على قلبي يا اللّه فإنَّ فيه من العشق ما لا يعلمهُ غيرك.

الحب؟!

ما هوَ؟

أين خُلِقَ؟ ومتى عاش؟

لا أحد يعلم، ولا أحد يشعر حين يجري الحب حافياً على قدميهِ المشتعلتين خِلسةً إلى مركزِ القلب، ليسمو بروح هذا الإنسان البائس نحو رأسِ قمةِ ايفيرست، حين يدخل الحب بكل جلالتهِ إلى داخل القلب ثمَّ ينير بصيرته ويفتح أبوابه التي حُرِّمَ عليها رؤية النور

لاستقبال ذبذباتِ الكون المنيرة التي تتهافت بكل قوتها إلى ساحاتِ قصورهِ الحانكة لتبسط سلطتها على تلك القصور.

حب الاشخاص متى دخل مدينة القلب يسارع برميِ سهامهِ الفتّاكة التي تستهوي بدورها إصابة حصونهِ المنيعة وتطيحُ بها أرضاً، فتجعلُ القلب عليلاً بداءِ ذلك الرَّامي مطلق السهام ودواءهُ أيضاً بقاء ذلك الرَّامي في جنباتِ أرضهِ.

أمّا عن حب الوطن فحين يدخل قصرَ أحدهم لا يدخل إلا مُتفرِداً، يخيلُ إلى جيرانِ القلب كم هو متغطرسٌ هذا الحب كالَّطاووس وبالوقتِ ذاتهِ شرِساً كالأسد، وخلاباً كطائِرِ السنونو

متى يقتحمُ هذا الحب الغرفة الملكية ويجلس على العرش حينها يحكم المشاعر كلها إلى أبدُ الدَّهرِ

سواءً حب الوالدين

أو حب الأقارب

أو حب النَّفس

حتى عشق الرِّجال للنساء والعكسُ أيضاً

وغيرها من المشاعر

جميعها تكون تحت سلطةِ حب الوطن فيتلاعبُ بها كما يشاء،

ويقمعها كيفما شاء

باختصار داء الوطن حين يقرر أن يصيبَ أحد الأشخاص

فيا لهنائِهِ بداءٍ كداءِ الوطن

ويا لفخرِهِ.

– يونس!

– قلب يونس!

– حدثني عن فلسطين هل كل شبابها يشبهونك؟

– يشبهونني في ماذا؟

– في حبك لها وإخلاصك الشديد وهوسك بتفاصيلِ غزة وبيوتها،

هل جميعكم هكذا واقفين كالجبل في وجهِ اعدائِكم ومتشبثين في

أرضكم كتشبثِ الطِّفلِ في أمه؟ هل كل الفلسطينيين صامدين في وجهِ ذاك المغتصب الذي سرق أرضَ العزة رغم كل المحن التي تواجهها كيف تنجحون في هذا؟

كيف تجيدون المقاومة مع هذا السّيل المؤلم الذي يكتنف أرواحكم ويحرق قلوبكم ويمزق أثواب أفراحكم بهذه الوحشية.

– أمّا عن حب فلسطين فهو عقيدتنا فهل سمعتِ أحداً قد خان عقيدته، والمقاومة هي السلاح الذي أمدنا به الله ورسالتنا هي قهر العدو فكيف يمكن لنا أن نتخلى عن المقاومة وهي سلاحنا الوحيد، بالنسبة لحب الوطن فجميعنا متعلقين بالقدس أيّما تعلق ومقيدين بحبل وفاءٍ لها، ربما وجد أشخاص استسلموا أمام ضعفهم فوشوا بنا للعدو لكننا لن نستسلم ولن نيأس أمام هذا الظلم بل سنحارب لآخر قطرةِ دمٍ، سنحارب إلى أن يأذن الله لنا بتحرير القدس أو أن يرزقنا ثوب الشَّهادة

– أتقصد أن هنالك فلسطينيين خانوا وطنهم وتآمروا مع العدوِّ ضدكم؟.

– بالتأكيد لا، ليسوا خونة وإنّما مغلوب على أمرهم، أو أنهم ضعفاء أمام عاطفةِ قلوبهم.

– لم أفهم جيداً، هلا وضحت أكثر.

تنهد يونس بألم ثم قال لها:

– سأروي عليكِ قصة جارنا أبا أمل لربما عبّرت عمّا أودُّ قوله.

أومأت برأسها موافقة فاستأنف يونس كلامهُ بشرودٍ:

– أبا أمل رجل في الخمسين من عمره يعشق غزة ويتمنى الخير دوماً لأبناءِ جلدتِه، يملك سحنة طيبة تشعر كل من يراه بالحب والسَّكينة، حين كان صغيراً وقع في حب ابنةِ عمه وخطبها من أهلها وأقام حفل زفافه الذي كان كالأساطير وكان حديثاً لأهل غزة الذين لم يروا الفرح من زمنٍ بعيد مما جعلهم يتناسوا الحرب لفترةٍ ولوّ أنها قصيرة، عاش أبا أمل حياته وسط أهالي غزة الذين

كانوا يعاملونه باحترام ويكنون له أسمى المشاعر وفي زمنٍ قصير استطاع أن يحقق إنجازاتٍ وضربات فتكت بقوةِ العدو مما جعل اسمهُ يلمعُ بين الثُّوار الفلسطينيين وباتوا يتخذونه قدوة لهم وموضع ثقة لكل أسرارهم ولكن عيبه الوحيد أنه يعشق عائلته بشدة ومهووسٌ بابنتيهِ الوحيدتين أمل وغرام فكانتا نقطة ضعفه التي أودت بحياته وحياة الكثيرين من الأبرياء أيضاً.

قاطعتهُ بجزع:

– لا تقل أنه توفيَ بسبب حبه الشَّديد لهنَّ.

أومأ يونس بخفة ثم عاد يكمل قصة أبا أمل:

– ولّما كان العدو يعلم نقطة ضعفه قرر أن يستغلها في صالحه لاستدراجِ أبا أمل وإرغامهِ على البوحِ عن خطةِ الثُّوار بعد أن يأسوا من قدرتهم على اكتشافِ خطتنا، وفي يومٍ ما وعندما كان أبا أمل عائداً من اجتماعٍ هام مع المقاومين لمناقشة خطتهم التي ستفتك بقوةِ المحتلّ بإذنٍ من اللّه، حين وصل إلى بيتهِ تفاجأ ببابِ منزلهِ

محطمٌ بوحشية ليست بغريبةٍ عليه شعر بالخوف يتسرب داخلهُ بسرعة الضوء ونادى على زوجتهِ وبناتهِ لكنهُ لم يجد رداً فأصابهُ الهلعُ في منتصفِ قلبهِ وراح كالمجنون يدور حول بيته راكضاً لعله يجد أثراً يدلّهُ على عائلتهِ ولكنه لم يعثر على شيء وانهار على الأرض باكياً لمدةٍ لم يعلم بطولها إلا حين قاطعهُ صوتٌ مألوفٌ بالنسبةِ له ولكنه كان يبغضهُ بشدة، قاطعهُ صاحب الصوتِ قائلاً بغلظةٍ بلكنتهِ العبرية:

– استمع جيداً يا ابا أمل لِما سأقوله الآن فهذا العرض لن أكرره ثانيةً سأعفو عنك الآن بمحضِ إرادتي وسأمهلك للمساء فقط إن لم تأتِ إليَّ وتخبرني عن خطتكم تلك سأذيق الويل لفتياتك، فكر جيداً بعرضي إن أنت قبلت أن تتعاون معنا سأتعهد أمامك بأن أعيد لك عائلتك سالمةً وسأتكفلُ بحمايتكم طالما الدم يجري في عروقي.

شهقت بحزنٍ وقالت:

– وهل وافق أبا أمل بأن يبيع أخوته الفلسطينيين؟ هل وافق على عرضهِ؟.

– في البداية كان رافضاً بشدة فكيف سيخون قدسه؟ كيف سيخون أهالي غزة الذين ائتمنوه على أرواحهم؟ لكنه ما إن حل المساء حتى ضعف أمام غريزة اشتياقه لعائلته وحزنه عليهم، فرّت دمعة يتيمة من بين أهدابهِ خلسةً فأحس بالقهر والعجز وقهر الرِّجال مؤلم ولو تعلمين يا سلام ما قهر الرجال، صمت يونس قليلاً وكأنه لم يعد يطيق الحديث أكثر فسألته بلهفةٍ:

– وما الذي حدث بعد ذلك؟.

– الذي حدث أنه وقبل حلول المساء جرَّ أبا أمل أذيال قهره وذهب إلى ذلك العبريّ وأخبره بكل تفصيلةٍ سواءً كانت صغيرة أو كبيرة عن خطتنا التي وضعها بنفسهِ أخبره بكل شيء، وهكذا عرف العدو خطتنا وجهزوا فخّاً كبيراً وقع فيه كل من شارك بالغزوةِ صريعاً.

عمَّ المكان صمتٌ ثقيل قطعهُ هو بسخريةٍ مريرة:

– بعد تلك المأساة وبعد أثارها الوخيمة على الشعب الفلسطينيّ أفاقِ أبا أمل من سكرته وشعر بالخزيّ لِما فعلهُ مع أبناءِ وطنه ولم يحتمل هذا الإثم فقرر أن يعاقب نفسهُ وانتحر مطلقاً رصاصةً جاءت في منتصف رأسهِ.

شهقت بدموع:

– وهل أوفى المحتلُّ بوعده هل عفا عن عائلتهِ؟.

ضحك يونس بحرقةٍ مردفاً:

– وهل هذا من شيّمِ العدو؟ هل يتسمون بالصدق؟! لو كان في قلبهم ولو ذرة وفاءٍ صغيرة لَمَا وجدتِنا الآن نعاني هذه المجزرة.

ترقرقت دموع الحزنِ في عينيها

يا الله! ما بالهم جميعاً يتكاثرونَ على القدسِ هكذا

ما بالهم وما بالُ غاراتهم لا تنصبُ إلا في أرضِ العزة

ألأنها رقعةٌ خُلِق السلام في بيوتها

وترعرع في غاباتها

وسكن جوف ينابيعها

واستنشقَ من هوائها

هل أرادوا أن يستأثروا بسلامها، وأن يغتصبوا أنهارها، وأن يحرقوا أشجارها

فقط بدافع الحقدِ والغيرة!

يا إلهي لِمَ هذا الجور؟

لِمَ هذهِ الحنكة؟

لِمَ؟

عاد يونس مرهقاً إلى منزله بعد غيابِ يومٍ بأكمله ليجد سلام نائمة على الأريكة وقد رأى على وجهها ملامح الإرهاق فعلم أنها لم تنمْ إلى الآن وهي تنتظر عودته، نظر إليها بحب وهي نائمة كالملاك الوديع، تغيرت ملامح وجهه إلى الألم حين راودتهُ ذكرياتُ يومهِ الشَّاق لكنه حرّك رأسه بسرعة وكأنه يريد أن ينفض شعور الذنب

الذي اجتاحهُ فهو مهما حصل لن يفكر بتغيير قراره ولن يتراجع عن الطريق الذي اختار أن يسلكه، جلس أمامها يتلاعبُ بمنابتِ شعرها ويتأمل وجهها وينهلُ من ملامحها بشغف وكأنهُ ظمآن بشدة ووجهها كان بئره، تململت في نومها وأفاقت على حركة يده واحتضنتهُ بلهفة.

– أين كنت يا يونس طوال اليوم؟ كيف تخرج دون أن توقظني أو تدع رسالةً تطمئنني بها، أمضيتُ اليوم وأنا أحترق شوقاً إليك ألم ترأف بقلبي الذي كاد أن ينفطر قلقاً عليك؟.

– هوّني على نفسك يا حبيبتي كل ما في الأمر أنني لم أرد أن أقلقكِ في نومك، كان لدي عملٌ في دار النَّشر ولم أكن أعلم أنني سأتأخر لهذا الوقت.

– حسناً! وهاتفك؟ لِمَ كان مغلقاً طوال اليوم؟ منذ الصباح وأنا أحاول مهاتفتك دون فائدة.

– سامحيني يا غاليتي كما قلت لكِ كان لدي عملٌ هام فأغلقتُ هاتفي.

تعلّقت في عنقهِ بغنج وهي تقول:

– أسامحك هذه المرة فقط شريطة إلا تعيد هذا الأمر ثانية.

– أعدكِ يا فتاة الغاردينيا.

– كم أحب هذا اللقب حين تناديني بهِ.

– غاردينتي!

– عينيها.

مسحوراً بشلالات المياه التي تشعُّ بريقاً من عينيها:

– إن الثَّبات أمام عينيكِ جِهاد فما بالك وكانت عيناكِ معجزةُ الفن والحياة.

– أوه! الشاعر يونس يتغزل بعينيّ هذا يومٌ تاريخيّ.

– عيناكِ بحرٌ يا غالية، عيناكِ بحرٌ والموجُ مضطربٌ وها أنا هائمٌ والبحرُ عيناكِ.

– العسل الأصفر في عينيكِ يغرقُ بحري بالسُّكر.

– لولاكِ أنتِ، لولا أمواجكِ لَمَا كان هناكَ عسلٌ ولا سكر.

– من فرطِ أفراحِ قلبي وأنا جوارك لم أعد قادرة على الفرح حتى! وكأنني تجرّعتُ منه ما يكفي لأبدِ الدَّهرِ.

– اللّه! يبدو أنني لستُ وحدي من خُلِقَ شاعراً.

قالت بدلال:

– هذا من صنعِ يداكَ يا شيخ يونس.

ضحكَ بانطلاق:

– شيخ يونس! حسناً يا زوجة الشَّيخ.

– أتعتقد أنه من الممكن أن أمارس الشعر يوماً ما؟

نظر إليها بحب وراح يمارس هوايتهِ التي يعشقها وضعت رأسها في حجرهِ فتخللَ شعرها بأصابعِ يدهِ في حنوٍ:

– لديَّ اعتقادٌ راسخ أن داخل كل شخصٍ مِنّا شاعر

كلُ مِنّا يملكُ حق الكتابة

وكل بشريٍ هو كاتبٌ بالفِطرة

كلٌ مِنّا له سلاحهُ الخاص بتحريرِ الشَّاعر الذي يسكنُ جوف أوردتهِ

فإذا أجادَ استعمال هذا السِّلاح باتت البلاغة سجيّة من سجاياه الحميدة

وها أنا ذا قمعتُ قمقم الصمت من على سطح قلبي وسمحتُ للكلماتِ بأن تنسابَ برفقٍ من على سطح أناملي.

أردفت بفخرِ عاشق:

– فيا لهناءِ نفسي بسجيتكَ يا شاعر أحلامي.

– ما أعلمهُ أن العبارة هي "فارسُ أحلامي".

– لست الفارس فقط يا عزيزي بل أنتَ أنا وكلُّ أحلامي.

حينَ جاءتني خطواتكَ راكضةً

لم تكن بهذهِ السَّوداوية ..!

ولا بهذا الفرَاغ

أكُنتَ تجيد ارتداءَ أقنعةٍ ملوّنة بألوانِ الطِّيف

أمْ أنها كانتْ لهفةُ البدايات؟.

– يونس! لِمَ أنت جالس بهذهِ الهيئة البائِسة؟ ثم متى عدّتَ من عملك؟.

قالتها سلام بخشية حين عادت من جامعتها ووجدتهُ جالساً على أرضِ المنزل وعينيه تائهةً لا تفارق الفراغ.

– حبيبي ما الذي دهاك لم وجهكَ شاحبٌ هكذا؟

– فلسطين يا سلام، إنها فلسطين ومن غيرها؟!.

– ما بالها فلسطين ؟.

أجابَ بتوهان:

فلسطين الحبيبة، أرض العزة، أرض السَّلام كل يومٍ يزدادُ انسياب حبال متانتها من بين أيدينا، مع كل يوم يزدادُ يقيني بأن فلسطين لن تعود كما كانت، لن تعود لسابق عهدها، ومن يقول غير ذلك فما هو إلا واهم لا يريد لأحلامهِ التي من قصرِ الأوهامِ ابتاعها أن تُفنى، كلما أردتُ أن أجعل أحلامي بحرية فلسطين راسخة في

جعبة الأمنيات ازدادت مرارة الوهم في روحي وتقيّدت فراشاتُ الحلم في قلبي كل هذا فقط لأني فكّرتُ بحريتها، فقط لمجرّد التّفكير، حتّى الأحلام حرّمَت على أهلها!.

– ما هذا اليأس الذي أصابَ معنوياتِكَ يا يونس، إن كنت أنتَ تتحدث هكذا فلا عتبَ على غيرك ولا إحراج، ألم تكن أنتَ من أخبرتني عن أهمية المقاومة وعن عوامل الصمود، ألم تكن أنتَ من افتخرت بأسطورةِ الشّعب الفلسطيني؟، ألستَ دوماً تردد أن النصر كتب لكم وعليكم وسيأتي عاجلاً أم آجلاً؟.

– بلى، قلتُ ذلك لكنني لم قادراً على احتمال موجاتِ العذاب التي تجتاح ضميري كلما جاء ذكر موطني، فكيف وأنا وكياني لا تفارقنا ذكراه؟.

– ما الذي حدث يا يونس حتى أصابت أعصابك كمية الإحباطِ هذه؟.

– لّما فاضت بنا أرواحنا لأعالي أوجهِ الظلم، ولّما أُرهقت معنوياتنا بشكلٍ لا يوصف قرر الشعب مقاومة هذه المجزرة بشكل آخر وبوجهِ مختلف، فأعلنوا عن ثورةِ التحمتْ بها أيادي الثوّار وامتزجت شجاعتهم وقيدوا أنفسهم بقيدٍ من طهارةِ ترابِ غزّة واجتمعوا على قهر العدوانِ فأعلنوا عن حملةٍ سمّيت بطوفانِ الأقصى وذلك لأنها انطلقت من المسجد الأقصى ومنهُ كانت بدايةُ البداية.

– أظن أني سمعتُ قليلاً عن هذه الثورة لكن الشعب الفلسطيني لم يصمد كثيراً أمام مدى قوة أسلحةِ العدو المتحكمة بمصيره.

– حاولوا بكل قوتهم وحاربوا بروحٍ نقية وبعزّةِ نفسٍ وكرامة ولم يلجأوا لتلك الأساليب القذرة، وهاهم ينالون الشهادة واحداً تلو الآخر وكم أحسدهم على شهادةٍ كهذهِ وموتٍ شريفٍ كهذا.

– أتحسدهم على الموتِ يا يونس؟!.

– ألا ترينَ معي أن من بقيَ ولو أنهُ عانى أقهر أنواعِ القهر، وتذوق أكثر الأطعِمةِ فساداً، ومات وهو يتضوّرُ جوعاً كان راضياً عمّا

اختارهُ، تخيلي يا عزيزتي كان أسلافنا يقولون أن الإنسان مهما حصل لن يموت جوعاً ولا ظمأً وها هي غزّة تحطم كل الأرقامِ وتتجاوز كل حدود الأساطير، ها هم أطفالها يموتونَ جياعاً ويُذبحونَ بلا ذنبٍ وبلا سبب.

– لقد سُلِّطَ على القدس بوابل وحوشٍ ضارية لا رحمة لديها ولا نبض لقلبها العفن، حتى الدم الذي يجري بأوردتها لا يمُتُّ للدمِ بأي صلةٍ، عن أي نصرٍ وعن أي مقاومة لا زِلنا نتحدث؟.

– لا أفهمكَ يا يونس ولا أفهم سرّ تغيرك هذا، دوماً ما كنت مؤمناً بقضيةِ فلسطين وناشراً للحماسِ ولروحِ الصمود في كل حرفٍ تنطقه.

– لربما أنهكتني جيوش المقاومة التي تتزاحم في قلبي وهي لا تزال تناشدني بالعودة إلى ظلّ أبي.

صمتت

لم يعد لديها متسع من الكلام فإن هي تعمّقت أكثر بهذا الحديث معه حتماً سيُعربُ عن رغبتهِ بالذهاب لفلسطين جهراً وهي لا تريدُ أن تستمع لما سيقوله.

وهل هناك عاقلٌ يعود إلى أرض المعركة بعد أن سلم من شرورها؟

فلسطين لوّ فتحت لهُ أبوابها

لوّ رحّبت بعودتهِ عند قارعةِ الطّريق

لوّ أنشدتْ لهُ أناشيدَ المجاهدين قرب خط الدُّخول

لن تتوانى عن سفكِ دمائِهِ حين يجتازُ ذلك الخط

رصاصة واحدة تطلقها أسلحة العدو؛ كافية بأن تجعل قبيلة بأكملها ثكلى على ما فقدت

وحينها يا لدموع القهر التي سيخفيها تراب غزّة

لا تعليق

ولا شكوى!

فقط بحّةٌ مكتومة

وخطٌّ عريض من الدم ينبثق عِوضاً عمّا جفّ من دموع

يا للعجب!

ذلك الفلسطيني..!

رغم أنهُ يعلمُ عن كل ما سيواجههُ حين يعودُ إلى وطنهِ، إلى مسقط رأسهِ

لا يزال..!

لا يزالُ شغوفاً للعودة

أيُّ وطنيٍّ هذا؟

وأي حبٍ يملكهُ لفلسطين؟

ربما مساماتهُ وخلايا أعرافهِ لا زالت تحتفظ بكلِ أثرٍ لوالدهِ في جوفها

ربما لا زالت منابتُ وروائحُ الخبز الأصيل عالقة في طيّاتِ حواسهِ

ربما كان يخافُ الليل وما يحملهُ لهُ من ذكرياتٍ تعيسة لأرضٍ يقدّس ترابها

ربما كان شاعراً مهووساً بأزِقّةٍ وحاراتٍ أعطتهُ ما يكفي من الإلهام

ليخط في رثائها ما يعادلُ قبيلةً بأكملها

ربما .. والكثير من ربما

لكن من بينها كلها هناك شيءٌ وحيدٌ مرتجلٌ منها ومؤكد!

يونس مجنونُ فلسطين

ويا لحظِ من أصابتهُ عدوى كهذهِ.

"المرة الأولى التي أكذبُ فيها

لكنها مع احتراقِ رحمِ قلبي لن تكون الأخيرة"

آخر تصريحات ثملٍ وقع في كأسِ الجنون رِفقةَ دقاتِ قلبٍ تمايلَ نِفاقهُ بحنوٍ لدربِ اللانهاية

هذا الثَّمل!

وأسفاهُ..!

في عزِّ أبريل حيث خطواتُ الشَّمسِ تتسابقُ راكضةً نحو البحيرة

ويا حسرتاهُ

كانَ ملكاً متوّجاً في أزِقةِ الحب الواسعة

كان قارباً عظيماً في أحلامِ كل فتاةٍ صهباءَ، فاتِنة

مِغواراً في حربِ الهوى وفي حوزتهِ بندقيّةً لوّ أنهُ رفعها في وجهِ النِّساءِ لَرَكعنَ قربَ بابِ مقصورتهِ بفستانٍ لوّ من خيوطِ الحبِ،

والعشقِ والجوى أُحيكَ لما كان هكذا

كان بحق؛

روزنامةَ حلمٍ بأكملها لكلِ امرأةٍ يحملها كوكب الأرض

كان شمساً وقمراً ونجماً

كان فارِساً وحلماً، وكان ساحِراً آسراً

كان لكل النِّساء حياةً وهواءً

لكنهُ كذِبَ حين قال أنهُ للشوق كافراً

وأنهُ لِكُلِ قدسٍ لا يحملُ في قلبه ولو ذرةَ شعرٍ

وأنهُ، وأنهُ لا يملك لحبِ العودةِ مكاناً في أعماقِ فؤادهِ

كاذب!

فها هو الحُب والشوقُ وريح الوطن رِفقتْهُ من للجنونِ قادتهُ دون سلاسل.

حامِل ! !

إنها حامل

لا تكاد الدنيا تسعها وفرحتها

في الوقت ذاته تذرف الدموع وتخرج الضحكات العالية الصاخبة

تارة ترفع يديها بالشكر والدعاء

وتارة تركعُ ساجدة لربٍّ أكرمها بالعطاء

أخيراً...!

أخيراً ستنجب قطعة من رائحة يونس

وروحاً تزيد الحب والغرام بينها وبين يونس

وقلباً تقتبسهُ من ضلع قلبِ يونس

وحناناً مفرطاً كالذي يجودُ به يونس

وجمالاً وشيّماً كالتي يملكها يونس

نعم..!

الآن تستطيع القول بأنه لا فلسطين ولا غيرها قادرة على أخذ نبض قلبها من مكانهِ

الآن فقط ستضمن بأن يونس باقياً جوارها ولن يرحل

نعم! يونس الحبيب لن يفكر بالعودة إلى دائرة الخطر مرةً أخرى حين يعلم بأنه سيصبح أبّاً وأنه بعد تسع شهور كاملة سيحمل خلفتهُ بين ضلوعه

كم هي متلهفة لرؤية تلك اللمعة التي ستحتكر عمق عينيه حين تتلو على أوتار قلبه بشرتها الجميلة

حتماً سيحتضنها بعشقٍ لا مثيل له، وسيصرخ عالياً من فرحته

يا ليته الآن أمامها لتخبرهُ وتشاركهُ بإنجازٍ كهذا، لكنهُ منذ الصباح لملم شتات أحزانهِ ووضبت حقيبة نحيبهِ على وطنه عازماً على السفر إلى دمشق حيث سيقام حفل توقيع ديوانهِ " ذاكرةُ القدس" في المعرض الدولي للكتّاب كما أخبرها سابقاً.

حسناً ستنتظر ثلاثة أيامٍ لا أكثر وحين يعود ستحتفلُ رفقتهُ بهذهِ البشرة

ستنتظر وما أصعبَ هذا الشوق على قلبها.

جاء إلى خاطرها موقفاً رومانسياً جمعها بحبيب الروح حين داعبتهُ بسؤالها:

– حبيبي!.

– أنتِ قولي هذهِ الكلمة دائماً وسأبقى لكِ أعظم مجنون وأكبر عاشق.

– لاعبت أزرار سترتهِ بمكر امرأة:

– ألا تتشوق لطفلٍ يحمل عنك قليلاً مز هذا الشوق الذي يكتنف قلبك للعودة؟.

– لا، لا أتشوق يا عزيزتي.

– حقاً يا يونس؟ ألا تريد طفلاً مِن رحمي؟

– هوّني على نفسكِ يا حبيبتي كنت أمازحك قليلاً، لست أتشوق لطفلٍ فقط إنما مع بداية كل يوم ومع إشراقِ كل شمسٍ وفي كل لحظة

أحلم بيافا، وحيفا، وإسلام الصغيرة وغيرهم الكثير لا أريد طفلاً واحداً منكِ إنما جيشاً وقبيلةً بأكملها، لكنني لا أريد لأحدٍ بأن يسرق ولو نتفةَ حبٍ صغيرة من قلبي لموطني، حين أصبح أبّاً كوني على ثقة تامة أنني سأعمل جاهداً لزرع مثل هذا الحب في قلب آبائي وأحفادي.

– آهٍ يا حبيبي أنا على ثقةٍ كبيرة بأنك ستكون أعظم أبٍّ بالعالم كله.

– وأنتِ أيضاً يا غادرينيتي ستكونين أجمل أمٍّ رآها قلبي قبل عيني. وأخيراً ستنير يافا الصغيرة ظلمة هذا العالم، كم تتمنى أن يكون ما تحملهُ برحمها طفلةً لتنير قلب يونس ببرائتها وتملأ دنياهُ بضحكتها الشقية، كما أن يونس سيعمل جاهداً ليكون قدر يافا الصغيرة مغايراً تماماً لمدينتهِ المظلمة

.. وسيكون لها خير حارس.

"لَيستْ كُلُّ حياةٍ تستحقُ اللقبْ"

في هذا الكون وُجِدَتْ تناقضاتٌ لا مُتناهِية

ووجِدتْ في هذا الزَّمن فنونٌ وأشكالٌ متعددة لمصطلحِ الجور

وكأنّها من غياهِبِ جهنّم انبثقتْ بِظِلِها المُراوِغ

وكأنّها من ممالكِ الجِّن تسللت لتبعثر الفساد بيننا

أيُعقل؟!

يا للعارِ الذي وصلت إليهِ نفوسُ البشر

ويا للمعاناةِ التي يُكابِدُها من لا وطن لديه

أنت تكون يتيم الوطن

أنت تكون مكلومَ الأرض

هذا يعني

.. فقط!

أنّك فاقِدٌ لكل ما هو للحياةِ يميل

وأنّك ولوّ جاءت ألف ألف مدينةٍ بعدها

لن تكون سِوى مجرّد يتيم

ولن تكونَ سِوى طيفاً في ساحةِ الأمان

من لا يملك بيتاً دافِئاً يتكوّرُ بين ضلوعهِ حينَ يرتجفُ مساءً من نسماتِ الرِّيح

لن يكونا حيّاً

من لا موطن لديه

فهو فاقِدٌ للهوية تماماً كما لِوطنهِ فاقِد

ومن تجلِدُهُ الحياة بِسوطِ مشقتِها

وتتلاعبُ بِخيوطِ الصَّبرِ التي بِحوزتهِ

وتُلقي عليهِ ثوبها السَّام

وتُجرِّدُهُ مِن كُلِّ بسمةٍ

ومن كلِّ فرحة

بالتأكيد لا يملك حيّزاً يحتوي آلامهُ

لا أصل فلسطينيّ

ولا أُمَّ لديهِ.

ها هو ذا أخيراً حقق حلمه وجرى وراء حلم كان بمثابةِ الكابوس الموحش لليلها

ها هو ذا تخطى كل المعابر الشائكة، ولملم شتات الشوق من قارعة الطريق ومنه حاك ثوباً مكللاً بالحب.. الحب فقط وكثير من رائحة الهواء الفلسطيني الأصيل

ها هو ناشد الدرب بأن خذني يا طريق لأبواب القدس الشريفة وبعدها إن شئت أخذ روحي لن أبالي ولن أزيد اللوم عليك

خذيني يا رياح لأبوابها وسأكتب لكِ ما بقي لي من ذرات هواء، ولو شئت لزفرت لكِ العمر كله أوكسجينٌ وكربون ومنهُ ما شاءت ذراتكِ

فقط إليها حمّلي هذا الفاقد المكلوم

خذيني يا سماء لأرضها وبعدها لو شئتِ لاقتلعتهُ لكِ من جذورهِ فقط خذيني لفلسطين.

خدعها يونس لم يكن ينوي الذهاب إلى دمشق إنما كان عازماً على السفر لغزّة رفقة صديقه مالك الذي قرر العودة إلى موطنهِ أيضاً حين علم بموتِ شقيقهِ الكبير إثر غارةٍ جوية استهدف بها الكيان مجموعة من المقاومين فكان بينهم شقيقه الذي أبى ورغم اضطهادهم أن يفارق موطنه الذي عاش فيه وقرر تكريس حياته بدافع المقاومة، المقاومة وحسب.

في البداية قلقت عليه كثيراً حين لم يجبها على أي اتصال والذي زاد مخاوفها هو الأسبوع الكامل الذي مضى على غيابه دون أي خبر ، حتى أنها لم تجد أثراً لأي حفلة توقيع في كل مواقع التواصل تحمل اسم ديوانهِ

لم تنم لليالي كثيرة وهي لا زالت تنتظر أي طائر يحمل لها خيراً يطمئن فؤادها على محبوبهِ

باتت لها أشعة الشمس ظلاماً ليلياً دامساً

وفي عينيها انطفأ بريق الحياة الوردي

ومن روزنامة أحلامه هجّت كل المشاعر تبحث عن صاحبها

ومن دفتر أيامها طارت سنوات الحب وراء آثار يونس

وكل ما في حياتها من حياةٍ هجرتها باحثةً عن قطار الموت حين فارقتها روح يونس

عاشت الكثير من مشاعر الخوف، ولاقت كل أنواع الشوق واللهفة إلى أن وجدت تلك الرسالة بين أشيائِهِ ، تلك الرسالة التي غيّرت كل الموازين وقلبت حياتها رأساً على عقب وجعلتها من خوفها تنتقل لمغارةِ خوفٍ أكبر وأكبر!

افتقدتكَ بحثتُ عنك لم ألاقيك

خرعتُ أناديكَ متوسلة لكن لحنَ صوتك الرحيب لم يجبني

فزعت دموعي عليكَ قلقاً

أين رحلتَ ؟

متى رحلت؟

حبيبي..!

تعالَ، تعال!

اشتقتُ حياةً وهبتني إياها

اشتقتُ روحاً نفختها في جوفي المنطفئ

اشتقتُ عبق سجائرك

اشتقتُ عشوائية تسريحتك

اشتقتُ حروف الغزل التي تتفننُ نظراتكَ في بثّها

عينيكِ اشتقتها

رجولتك أطاحت بكل ذرة ثباتٍ لا زالت في قلبي

طلّتُ الحب المهيبة فيكَ اشتقتها حدّ الجنون

آهٍ حبيبي!

أما اكتفينا فراق ؟

تعال نلتحم شوقاً

تعال نلتحمُ وِجداً

تعالَ.. تعال.

حبيبتي وغاردينيتي الغالية سلام..!

يا من لها القلب دقّ الآلاف من المرات والمرات ولازال وسيبقى..!

أحب أن أبدأ بأكثرِ شيءٍ أحب قولهُ وفعلهُ

أحبكِ وأحِبُ فيكِ الحبَ حباً جمّاً

وأنا أكتب لكِ هذه الرسالة خطر لي بأنكِ الآن ستكونين في أكثرِ حالاتكِ فتنةً وجمالاً هذا لأني لن أكون قربكِ، حينها حتماً سيزيدُ هرمون الشوق من إفرازهِ لديكِ يا غالية

وأنتِ كلما اشتقتِ إليَ كلما زاد وجهكِ ضوءاً وثارت فيه عينيكِ باحثةً عن نورها بلهفةٍ لا تليقُ إلا بها

أكتب لكِ هذه الرسالة وأنا أتأمل طفولتكِ البريئة من الشرفة أنتِ تلعبين مع قطك الصغير الذي يشبهكِ كثيراً في حديقةِ بيتنا

أريد أن أعترف لكِ بسرٍ صغير

أكثر ما أحبهِ بكِ هي تصرفاتكِ الطفولية، كثيراً ما تثير شهيتي لأشاكسكِ فتظهر نظرة الغضب التي تزيد جمال وجنتيكِ جمالاً فوق جمالها وأكون بهذا حققت هدفي

في كل مرة كنت أنظر بها إلى تفاصيل وجهكِ كان قلبي يسرع خفقاتهُ لدرجةٍ أشعرُ بها وكأن القلب بما فيه سيخرج من مخبئهِ هارباً إليكِ ليلتحم مع قلبكِ ويعيش بهناءٍ تحسدهُ عليه كل قلوب الكرة الأرضية

هل سألتِ نفسكِ لمرةٍ واحدة لماذا لم أكن اسمح لكِ بقصِّ شعركِ يا زهرة الغاردينيا؟.

لأنه كان يذكرني بخيوط الشمس التي كانت تشرق على سطوح غزّة في أول الصباح، تلك الخيوط التي كنتُ كل يومٍ أركض في أرضِ دارنا لألاحقها بمتعةٍ لا وصف لها وبفرحةٍ أسعر وكأنني أطير بها، كان يذكرني بفرحةِ القدس المنجلِيَة بين طيّاتِ ليلٍ لا يزول

كانت خصلاتُ سعركِ اللامعة تذكرني بشمس القدس فما عساي أفعل إن أنتِ يا محبوبتي سرقتها؟

حتماً لم أكن لأسمح لكِ بإطفاء نورٍ كان بمثابةِ الحياة لقصور روحي المنطفئة

دوماً ما كنت لي خير دواءٍ وخير سند، وكنتِ لي العمرُ كله

لا، لا أقول لكِ هذا بصيغة الماضي إلا لأنني مدركاً للمسافاتِ الفاصلة بيننا في هذهِ اللحظة

أنتِ يا حبيبة العمر دواء العمر بأكمله

وأنتِ قلبي كلهُ فكيف لا أكون لكِ عاشقاً مدمناً

أتذكرين يا سلام حين احتضنتكِ في حديقة بيتنا الصغيرة ورحتُ أُملي عليكِ أحلامي واحداً تلو الآخر؟، كان أول حلمٍ وعلى رأسِ القائمة هو طفلة تشبهكِ، يافا صغيرة، كنت كثيراً ما أتتوق لقطعةٍ من رحمكِ أنتِ يا عزيزة لأكون لها عاشقاً حد الجنون، أوه هل كنتِ ستغارين من حبي لفتاةٍ غيركِ حتى لو كانت ابنتكِ، لا استغرب شيئاً كهذا عهدي بكِ أنكِ لا تسمحين لأحدٍ بسرقةِ حرفِ غزلٍ من قلبي، أنانيةٌ دوماً حين يتعلق الأمر بحبي أنا، دعكِ من

هذا الآن يا مدللتي فليس وقتهُ ولا مكانهُ ويبدو أن لا وقت لهُ على الإطلاق، هل اعتدنا على تحقيق ولو نتفةَ صغيرة من أحلامنا؟ لا، نحن الفلسطينيون لا مكان للحلم في حياتنا ولا يحق لنا حقٌ كهذا، حلمتُ كثيراً بيافا جديدة لكنها الأيام تعاندني بكل قدرتها، الغريب بالأمر أنني لست حزيناً فقد تقّبلت قدري وأدركتُ سبب وجودي، لكن أرجوكِ يا سلام عديني إن أنجبتِ طفلةً في يومٍ ما سيكون اسمها يافا، أرجوكِ يا غالية حققي لي آخر أمنية وتأكدي أنني سأكون لكِ دوماً "يونس مجنون سلام"

لقد أطلت الحديث كثيراً سأختصر عليكِ الكلمات مع أنَّ قلبي يناشدني بألا أتوقف عن الكتابة ولكن إن أنا كتبت عنكِ حتماً لن يكفيني العمر بأكملهِ، لذا سأضعُ بنفسي النقطة في نهاية السطر.

إن كنتِ أنتِ تقرأين الآن رسالتي أو (وصيتي الأخيرة) فتأكدي حينها أنني لن أكون جانبكِ وأن ريح فلسطين أخذتني قسراً إليها،

نعم أنا ذاهب للموت بمحضِ إرادتي ولست نادماً فهذا قدري وقدر كل فلسطينيٍ الموت بدافع المقاومة وفوق ترابِ غزّة العزة

أنا الآن في قطار الشوق محلقاً فوق سماءِ الوطن

أنا ذاهب إلى فلسطين يا سلام، ذاهب إلى دائرة الحرب بقدميّ، لذا يا عزيزتي ورغم ثقل الكلمات على روحي، آهِ حتى كتابتها تستنزف كل طاقتي فماذا لو كنت أقولها أمامكِ؟ بالتأكيد لن استطيع

لكن رغم قساوة الشعور على قلبي وجبَ عليَّ أن أقول لكِ إن أنا فارقتُ الدنيا في سبيل العودة لا تحزني فأنتِ تعلمينَ كم تعني لي دموعكِ الغالية، أكملي الطريق يا سلام حتى وإن لم أكن قربكِ

كوني سعيدة يا غاردينيَّتي

وكوني قوية كما عهدتكِ دائماً

وأحبكِ باللهِ يا سلام.

"زوجكِ يونس"

ملحوظة: قريباً ستصدر روايتي، لأول مرةٍ أكتبُ قصتي معكِ، لم أكن أتخيلُ أنني سأعيشُ نهايةً كتبها قلمي

هذه الرواية لأجل ألا تموتَ قصتنا وإنما لتتناقلها ألسنةُ العالم كله ولتعيش العمر عمراً فوقهُ.

ها هو رحل

كما أنبئها حدسها تماماً

مجنونٌ وأحمق، وغبي جداً ألم يقل دائماً أن الفلسطيني لا يحق له بأن يحلم

فكيف هو سيجعلُ من شيءٍ لا يملكهُ حقاً شرعياً؟

كيف يفكر بالذهاب لغزة أوليس هذا حلمهُ الأعظم؟

أوليسَ هذا هاجسهُ الأكبر؟

فكيفَ لهُ بالتفكير بما هو محرّمٌ على كل فلسطينيٍ مهاجر؟

ليسْ كل قصةِ حبٍ أينعت فوق أرض السَّلام كان مصيرها الموت لكن أعظمها هكذا، ولا شك أن كل قصةِ حبٍ عظيمة لم تمت بموتِ أصحابها كحب جميل لبثينة، وقيس لليلى وغيرهم الكثير

مات يونس على الطريق حتى قبل أن يحتضن تراب غزّة

قتل نفسهُ بدافع الشوق وحتماً إن عاد به الزمن للوراء كان عاد الأمر مرةً ومرةً وكل مرة

أمّا زهرة الغارديني تلك صار هاجسها الوحيد وكلماتها المحترقة بمصابٍ جليل... أخذتهُ مِني فلسطين.